

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السابع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السابع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

مهندس / رجاء الهادى محمد عنارة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٥٠٠٤-١٩٨٠-٦٣٠/٦

سورة الحجر

مكية وآياتها تسع وتسعون

أما أنها مكية فقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضى الله عنهم ، كما روى عن قتادة ومجاهد ، واستثنى الحسن قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٨٧ » . وقوله سبحانه : « كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩٠-٩١ » . ذكره صاحب مجمع البيان .

وأما أنها تسع وتسعون آية فبالإجماع كما نقله الدانى والطبرسى .

وتناسب سورة إبراهيم التى قبلها فى أنها مثلها فى كونها مكية مفتتحة بأسماء بعض حروف المعجم ، وقد جاء فى كلتيهما النهى عن الكفر والوعيد بالعقاب عليه ، والحث على الإيمان والوعد بالثواب عليه ، وتسليةُ الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه ، إلى غير ذلك من المناسبات التى جمعت بينهما .

مقاصدها

وقد اشتملت هذه السورة على مقاصد عظيمة ، أهمها ما يلى :

١ - أنها ابتدأت بالإشادة بآيات القرآن المبين ، وبينت أن من كفروا سوف يتمنون أن لو كانوا مسلمين ، وأمرت النبي أن يتركهم يتمتعون ويلهيهم الأمل فسوف يعلمون العاقبة السيئة لانصرافهم عن الحق ، وذلك فى وقت معلوم لله ، لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون.

٢ - أنهم لما سفهوا على الرسول بوصفهم إياه بالجنون، لأنه لم يأتهم بالملائكة تؤيده وتبلغهم عن الله نَبَّهَتْهُمْ هذه السورة إلى أن الملائكة لا تنزل إلا بحكمة ، وليس منها أن تكون رسولا عن الله إليهم ، فإنهم يهلكون بمشاهدتهم لها على صورها الحقيقية ولا يُنْظَرُون ، أو يهلكون عقابا على كفرهم بعد مجيء الآية التى اقترحوها ، كما جرت عادته تعالى فى الأمم قبلهم ، وأرشدتهم إلى أنه تعالى هو الذى نزَّل على محمد معجزة الذكر وهو القرآن ، وأنه حافظ له من كل ما يقدح فيه ليظل معجزة الإسلام ما بقى الزمان .

٣ـ تسلية الرسول عن استهزاء قومه ، بأن ذلك عادة أهل الباطل مع المرسلين وذلك فى قوله سبحانه :

« وما يأْتِيهم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ـ ١١ » .

٤ـ التنبيه إلى الآيات الكونية الدالة على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته ، مثل بروج السماء ، والشهب التى تتساقط منها ، والأرض وإرسائها بالجبال ، وتيسير أسباب المعايش فيها ، وإرسال الرياح لواقح ، وإنزال الماء لسقيانا ، وما نحن له بخازنين ، بل هو عطاءٌ من رب العالمين ، وأنه تعالى هو المحيي والمميت وأنه سوف يحشر الناس أجمعين للحساب والجزاء .

٥ـ التنبيه إلى أن مبدأ خلق الإنسان كان من صلصال من حمإٍ مسنون ، والجان كان من نار السموم ، وأنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد تمام خلقه ، فسجدوا إلا إبليس فطرده الله من الجنة ، لتكبره وعصيانه ، وأنه انتقم لنفسه ظلمًا من آدم ، بإغرائه بالأكل من الشجرة ، فأهبطه الله وزوجه إلى الأرض التى خلقه منها ليكون فيها خليفة ، وأن إبليس توعد بنى آدم بإغوائهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، فإنه ليس له عليهم سلطان ، وأن جهنم موعد العصاة أجمعين ، وأن المتقين فى جنات وعيون إخوانًا على سرر متقابلين .

٦ـ ذكر قصة إبراهيم وأضيافه من الملائكة ، وقد جاء فيها أنهم بشروه ـ فى شيخوخته ـ بغلام عليم ، فعجب من بشارتهم وقد تخطى سن الأمل إلى شيخوخة اليأس ، فطمأنوه قائلين : «بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَن يَقْنَطُ من رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٥ـ٥٦ » : وأخبروه أن الله أرسلهم إلى قوم لوط لعقابهم على كفرهم وجريمتهم التى اشتهروا بها فى العالمين .

٧ـ ذكر قصة لوط وقومه ، وقد جاء فيها أمر الملائكة إياه بالإسراء بأهله فى جزء متأخر من الليل ، ونهيهم لهم عن الالتفات إلى ما وراءهم ، وأن عليهم أن يمضوا حيث يؤمرون وأعلموه أن قومه الآثمين هالكون جميعًا فى الصباح ، وقد حدث هذا ؛ فإنه تعالى جعل فى الصباح عالى بلادهم سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، جزاء كفرهم وجرائمهم

٨ـ إجمال قصة أصحاب الأيكة والانتقام منهم ، وتفصيل قصة أصحاب الحجر المكذبين وذكر سوء نهايتهم .

٩ ـ بيان أنه تعالى لم يخلق السماء والأرض وما بينهما عبثًا ، وأن الساعة آتية ، وأن على النبي صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن قومه ويُسرِّى عن نفسه ، حتى يؤمر فى شأنهم بما يمكِّنُهُ منهم .

١٠ ـ بيان أنه تعالى آتى نبيه صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ، وأنه بما اشتمل عليه من الهدى يغنيه عن التطلع إلى الدنيا ، فإن الآخرة خير له من الأولى .

١١ ـ نهيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن على المشركين إن لم يؤمنوا ، وأمره بلين الجانب والتواضع لمن معه من المؤمنين ، وأمره أن ينذر المشركين ويخوفهم مما آل إليه أمر المقتسمين الذين اقتسموا طرق مكة ومسالكها ليصدوا السابلة عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وينفروهم منه ، فقد أماتهم الله شر ميتة ، وسيأتى بيان آراء المفسرين فى هؤلاء المقتسمين .

١٢ ـ أمره صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بأمر ربه ويبلغ دينه ، ولا يكترث بإعراض المشركين ، وأن يجنح للصلاة حين يضيق صدره بما يقولونه عنه وعن دعوة الحق ، وأن يظل على ما هو عليه من عبادة ربه حتى يأتيه اليقين .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)[1] : أى قرآن مظهر شريعة الله والحق من الباطل ، أو بيِّن واضح لايخفى الحق فيه ولاتلتبس معانيه .

(رُبَمَا)[2] : رب حرف يستعمل لتقليل تارة وللتكثير أُخرى ، سواءٌ اتصلت به ما أولم تتصل ، وسواءٌ أكان مخففاً أم مشددًا ، ويختص بالدخول على الأسماء إن كان مجرّدا من لفظ ما فإن اتصلت به سوغت دخوله على الأفعال كما هنا ، (لَوْ) : حرف يفيد التمنى .
(وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ) : أى يشغلهم عن طاعة الله .

التفسير

١ - (الَر) : تقدم الكلام على مثله فى أول سورة البقرة وآل عمران ويوسف والرعد وإبراهيم وغيره ، فارجع إليه إن شئت .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) :

أى تلك السورة العظيمة بعض آيات من هذا الكتاب الجامع لكمالات الكتب السماوية ، الجدير بأن يختص من بين باقى الكتب باسم الكتاب ، وتلك السورة أيضاً بعض آيات

---

(١) مبين اسم فاعل من أبان وهى تستعمل متعدية للمفعول إذا كانت بمعنى أوضح وأظهر ، ولازمة – أى لا تنصب المفعول – إذا كانت بمعنى اتضح وظهر : وقد بينا ذلك فى المفردات .

(٢) وفى رُبَّ لغات أوصلها بعضهم إلى سبع عشرة انظر الألوسى فى الآية ، فقد فصل الكلام على تلك اللغات وإعرابها .

قرآن عظيم الشأن ، مبين شريعةِ الله التى ختم بها الشرائع السماوية ، ومُظْهِرها للناس فى أبهى صورها وأوضحها ، وكما يُبينُ شريعة الله فهو واضح فى عباراته ومعانيه ، لايلتبس على قارئ يعرف العربية ،ولا تخفى عليه عجائبه ومزاياه .

وبعد أن أشار الله إلى عظمة آيات الله البينات التى منها هذه السورة ، تشويقاً وتوجيهاً إلى حسن تلقيها ، شرع يبين ما اشتملت عليه فقال سبحانه :

٢ - (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) :

أفادت هذه الآية الكريمة ، أن الكفار سوف يحصل منهم بكثرة ، أن يتمنوا فى الآخرة لو كانوا مسلمين فى دنياهم لكى ينجوا من استمرار العذاب الذى يقاسونه فى الآخرة ؛ كما نجا عصاة المؤمنين بعد أن عذبوا فيها على قدر معاصيهم ، أخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة والبيهقى وغيرهم عن ابن عباس وأنس رضى الله عنهم « أنهما تذاكرا هذه الآية فقالا : هذا حَيْثُ يجمع الله تعالى بين أهل الخطايا من المسلمين والمشركين فى النار ، فيقول المشركون : مَا أَغْنَى عَنْكُمْ مَاكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، فيغضب الله تعالى لهم ، فيخرجهم بفضل رحمته » وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسندصحيح عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ نَاساً مِنْ أُمَّتِى يُعَذَّبُونَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَيَكُونُون فِى النَّار مَاشَاءَ اللهُ تَعَالى أَنْ يَكُونُوا ثم يُعَيِّرُهمْ أهل الشرك فيقولون : مانَرىَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ تَصْدِيقكُمْ نَفَعَكُمْ ، فَلَا يَبْقَى مُوَحِّدٌ إِلاَّ أَخْرَجَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ النَّار ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله صَلَى الله عليْهِ وَسَلَّم الآيَة » وذكر ابن الأنبارى أن هذه الودادة من الكفار عند كل حالة يعذب فيها الكفار ، ويَسْلَمُ فيها المسلمون ، ومن العلماء من قال إن هذه الودادة منهم فى الدنيا ، فالضحاك يقول: إن ذلك يحدث منهم عند الموت وانكشاف وخامة الكفر لهم حينئذ ، وابن مسعود يقول : إن الآية فى كفار قريش وَدُّوا ذلك يوم بدر حين رأوا الغلبة للمسلمين . وحرف (ربما) لم يوجد فى القرآن إلا فى هذه الآية ، وباؤه مفتوحة مخففة فى قراءة نافع وعاصم ، ومشددةٌ فى قراءة باقى القراء .

٣ - (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

بيَّن الله فى الآية السابقة ، أن الكفار حين يقاسون أشد العذاب يوم القيامة يتمنون أن لو كانوا مسلمين فى الدنيا ليتخلصوا من عذابهم الذى كتب عليهم الخلود فيه بسبب كفرهم ، وجاءت هذه الآية تأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتركهم فيما هم فيه من متاع الحياة الدنيا الفانية ، وإعراضهم عن العمل للآخرة ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وعدم مبالاتهم بما دعوتهم إليه من الحق المبين .

والمعنى : اتركهم أيها الرسول فى غيهم ، ولا تبال بإصرارهم على الكفر ، فلا سبيل إلى انتفاعهم بنصحك بعد ما بذلت فيه خالص جهدك ، اتركهم يأكلوا مايشاءون بدون وعى كما تأكل البهائم ، ويتمتعوا بدنياهم بغير حدود كما شاء لهم هواهم ، ويشغلهم عن الآخرة أَمَلُهم فى طول الأعمار ، ونيلِهم الأوطار ، واستقامة الأحوال ، فى الدنيا ويوم المآل ، فسوف يعلمون وخامة عاقبتهم فى أولاهم وأخراهم وأشد مرض تصاب به القلوب طول الأمل ، ومتى تمكن من القلب فَسد مزاجُه ، وعزَّ دَواؤُه ، وصعب علاجه ، ويئس من برئه حكماؤُه . وانتهى أمر صاحبه إلى الشقاء ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة مِن الشقاء . جمودُ العين ، وقساوةُ القلبِ ، وطولُ الأَمل ، والحرصُ على الدنيا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل » . وقال الحسن : ما أطال عبدٌ الأَمل إلا أساء العمل .

(وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(مِن قَرْيَةٍ) : أى من أهل قرية . (كِتَابٌ مَّعْلُومٌ) : أجل مكتوب معلوم لله . (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا) : ما تموت أمة قبل الأجل المقدور لها . (وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) : وما يتأخرون عنه . (الذِّكْرُ) : القرآن . (لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ) : أى هلاَّ تأتينا بهم ليشهدوا بصدقك يا محمد . (إِذًا) : أى حينئذ .

التفسير

٤ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ) :

بعد ما أنذر الله قريشا فى الآية السابقة بسوء العقاب بقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » . عقبها بهذه الآية ومابعدها لبيان أن هلاك الأمم الكافرة بمشيئة الله وحده وفق أجل معلوم له لاتتجاوزه ، فلا يقدمه استعجال ، ولايؤخره استغاثة ودعاء .

والمعنى : وما جرت عادتنا أن نهلك قرية عصى أهلها وتمردوا على رسلنا ، إلا ولهذه القرية المهلكة أجل مكتوب فى اللوح المحفوظ ، معلوم لنا وللملائكة الذين ينفذون فيها

أمرنا فلا يقدمه استعجال كما فعل قومك حين أنذرتهم ، ولا يؤخره استغاثة وتوبة بعد ظهور مقدماته ، ولهذا عقب الله تلك الآية بقوله سبحانه :

٥ ـ (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) :

أى ما تتقدم أمة من الأمم التى كتب عليها الهلاك - ما تتقدم - على الوقت الذى كتبه الله لهلاكها ، وجعله أجلا وغاية لوجودها ، وما تتأخر عنه لأى سبب من الأسباب ،بل تهلك فى الوقت الذى كتبه الله تماما « وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

٦ ـ (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) :

هذا شروع فى بيان كفر أهل مكة بمن أنزل عليه الكتاب بعد ما أشير إليه فى صدر السورة من كفرهم بالكتاب نفسه ووعيدهم على ذلك .

والمعنى : وقال مشركو مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية ـ لا على سبيل الاعتراف ـ قالوا له : يـأيها الذى نزل عليه الذكر من السماء كما تزعم، إنك لمجنون بسبب هذه الدعوى ، فإنها أكبر من قدره فى تقديرهم الخاطىء، حيث إنهم زعموا أن النبوة تتبع الرياسة الدنيوية ، إذ قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذا الْقُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ». والقريتان هما مكة والطائف، والرجل المقصود فى مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومى ، والمقصود فى الطائف حَبِيبُ بن عَمْرو بن عُمَير الثقفى كما روى عن ابن عباس. وقيل:عتبة ابن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل فى الطائف ـ كما روى عن مجاهد ، وقيل غير ذلك ـ

والذكر فى اللغة له عدة معان منها:الشرف ، وقد أطلق هنا على القرآن كما أطلق عليه فى نحو قوله تعالى فى سورة الزخرف: « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ».وقوله سبحانه فى سورة الحجر : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » لعلو شرفه ، وقد عبر المشركون عنه بلفظ الذكر مجاراة للنص القرآنى على سبيل الاستخفاف .

٧ ـ (لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

لوما ولولا وهلَّا:حروف ثلاثة يستعمل كل منها للحثِّ على الفعل والحضِّ عليه .

ومعنى الآية : هَلَّا تأتينا يا محمد بالملائكة يشهدون بصحة نبوتك ، ويساعدونك فى الإنذار كما حكاه الله عنهم بقوله : « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا » . أو يعاقبوننا على تكذيبك إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، فإن ذلك يكون تأييداً لك من ربك ،ويجوز أن يكون المعنى : إن كنت من جملة الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨ - (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ) :

أى ماننزل الملائكة إلا مرتبطا بالوجه الذى اقتضته الحكمة ، وليس فيها مااقترحوه فإن الملائكة إن نزلوا للشهادة بصدقه صلى الله عليه وسلم ، أو لمساعدته فى التبليغ : فإما أن يكونوا على صورتهم الحقيقية أو على صورة بشر ، فإن كانوا على صورتهم فلا يستطيع البشر لقاءهم بل يهلكون ، لأن أعصابهم لا تتحمل القوة الملكية الهائلة التى أودعها الله فيهم ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الأنعام « . . . . ولَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَايُنْظَرُونَ (٨) » وإن كانوا على صورة بشر التبس أمرهم عليهم وظنوهم بشرا حقيقيين ، وهذا ما عناه الله بقوله فى السورة المذكورة : « ولَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يلْبِسُونَ (٩)».

أما إن نزل الملائكة لاستئصالهم على كفرهم كما طلبوه على وجه الاستعجال بقولهم : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ». وقولهم : «اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُو الْحقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [١] ». وقولهم : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يوْمِ الْحِسَابِ [٢] » - أما إن نزل الملائكة لذلك - فليس من الحكمة أيضاً ، فقد وعد سبحانه أن لا يعذبهم والرسول فيهم بقوله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » [٣]. وكانت ثمرة هذا الكرم الإلهى أن دخلوا فى دين الله أفواجا قبل أن يلقى النبى صلى الله عليه وسلم ربه ،وبعد أن بيَّن الله فى صدر الآية أنه لاينزل الملائكة إلا بالحكمة وليس منها ما طلبوه ، ختم الآية ببيان الضرر الذى يحل بهم إن حقق لهم مطلبهم بإنزال الملائكة على أى وجه ، فقال :

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ (٢) سورة ص الآية ١٦ (٣) سورة الأنفال الآية ٣٣

(وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ) :

أى وما كان المشركون ممهلين حين يُنزل الله الملائكة استجابة لطلبهم ، بل يهلكون لأى سبب مما تقدم بيانه ، أو لأنه تعالى جرت عادته فى الأمم السابقة أنه إذا أتاهم بالآيات التى يقترحونها ولم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب ، وقد علم الله من أهل مكة أنه لو أنزل ملائكة لم يؤمنوا بسبب نزولهم ، وحينئذ فليس من الحكمة إنزال الملائكة ليكفروا بهم فيهلكوا ، فى حين أنه كتب لهم الإيمان حيث دخلوا فى دين الله أفواجا بعد فتح مكة .

ثم رد الله إنكارهم للقرآن العظيم فقال :

٩ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

أى إنا نحن -رب السموات والأرض- نزلنا القرآن الذى أنكروا أنه وحى من عندى ، نزلناه عليك ، وإنا نحن بِعِظَمِ شأننا لحافظون هذا القرآن من التغيير والتبديل والضياع ، ليبقى آية ديننا ودستور شريعتنا مابقى الزمان ، فلن يعتريه تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان .

ولقد أورث الله قلب كل مؤمن غيرة عليه ، فلا نرى أحداً يتسامح فى لحنة لاحنٍ فيه ، ولو كان شيخا عظيما ، بل يسارع إلى رَدِّه إلى الصواب ، ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ولم يتعهد الله بحفظ كتاب سواه ، أما كتبه السابقة فقد استحفظها الربَّا نيِّين والأحبار ، على سبيل الامتحان والاختبار ، فأساءوا الحفظ والرعاية ، وغيَّروا فيها وبدَّلوا ، وما لم يبدلوه منها أساءوا تأويله ، وتعمَّدوا تحويله : وقد زال أصل التوراة ولم يعد له وجود ، وضاع أصل الإنجيل وانتهى أمره ، ولهذا لاتجد نسخ التوراة أو الإنجيل متماثلة ، فترى بعضها أطول من بعض ، مع الاختلاف فى العبارات والمعانى .

أما القرآن الكريم فإنه نسخة واحدة فى جميع الأمصار والأعصار ، فى عهد رسول الله ، وحين جمعه أبو بكر فى نسخة واحدة ، ثم نسخه عثمان فى أربع نسخ وزعها على الأمصار ، لم يتغير فيه حرف ولا كلمة ، لأنه تعالى تولى حفظه بنفسه منذ أنزله على رسوله بقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ولم يستحفظ عليه أحداً سواه ، فطبع كل مسلم على الغيرة عليه والمبالغة فى صيانته بدافع وجدانى ، تنفيذا لوعد الله الكريم ، ليظل دستور

رسالة الإسلام الخاتمة للرسالات ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح :
« ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة » .

ولا شك أن حفظه من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا آية على أنه من عند الله جلَّ وعلا .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(شِيَعِ) : جمع شيعة وهى الفرقة والجماعة على طريقة ومذهب ، مأخوذ من شاع المتعدى تقول : شاعهُ بمعنى تبعه ، وتطلق الشيعة على الأعوان والأنصار . (نَسْلُكُهُ) : ندخله ، ومنه سلكت الخيط فى الإبرة . (الْمُجْرِمِينَ) : المذنبين ، يقال أجرم فلان وجرم أى أذنب كاجترم ، فهو مجرم ، وجريم أى مذنب ، والجريمة الذنب ، وجرم عليهم وإليهم جريمة جنى عليهم جناية – انظر القاموس . (خَلَتْ) : مضت. (سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) : طريقتهم .

التفسير

١٠ – (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة موقف أهل مكة من دعوة الإسلام وداعيها ، جاءت هذه الآيات لتسليته صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له بما حصل للرسل قبله من تكذيب أقوامهم لرسلهم .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يامحمد رسلا فى أمم الأولين ، الذين يشايع بعضهم بعضا فى كفره ، ثم بيَّن الله سبحانه كيف تعاملت هذه الأمم مع هؤلاء الرسل فقال :

١١ - (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

أى وما يأتى كلَّ أمة من رسول خاص بها إلا كانوا به يسخرون كما فعلت قريش معك يامحمد ، فلا تبتئس أيها الرسول بما فعله جُهَّال قومك معك ، فإن هذه عادة متأصلة فى الجاهلين مع سائر المرسلين .

١٢ - (كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) :

أى كما أدخل الله كتب المرسلين فى قلوب أممهم غير مقبولة لديهم ، ندخل الذكر - أى القرآن - فى قلوب المجرمين الآثمين من قومك فيكون فيها غير مقبول ومسخوراً منه ، لفساد عقولهم وظلمة قلوبهم ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولو شاء لهداهم أجمعين .

١٣ - (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) :

أى كذلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين من قومك حال كونهم لايؤمنون به ، وقد مضت سنة الله فى الأولين من أمم الأنبياء قبلك على هذا النمط ، فقد كانت كتب الله تدخل قلوبهم مصحوبة بالاستهزاء وعدم الإيمان .

ويصح أن تكون جملة : « وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » مستأنفة لغرض الوعيد والتهديد أى وقد مضت طريقة الله فى المكذبين الأولين من الإهلاك والاستئصال بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسلهم ، وأهل مكة إن استمروا على تكذيبهم ، فسوف يحل بهم مثل ما حل بمن سبقهم جريا على سنة الله فى المكذبين .

وأعاد بعضهم الضمير فى نسلكه على الاستهزاء وما نشأ عنه من الضلال والكفر ، ومعنى الآيتين على هذا ما يلى :

أى كما سلكنا الضلال والكفر والاستهزاء فى قلوب الكافرين برسلهم قبلك ، نسلكه فى قلوب المجرمين من أمتك يامحمد . لايؤمنون بسبب ذلك ، وقد مضت سنة الأولين فى الكفر والاستهزاء وهى مماثلة لهم ، وأنت بها عليم فلا تحزن ، أومضت سنتهم فى الإهلاك فليحذر قومك مثل مصيرهم .

ثم بين الله تعالى أن اقتراح قريش نزول الملائكة ليس بغرض الاهتداء بل هو للعناد والمكابرة فقال :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(يَعْرُجُونَ) : يصعدون ، والمعارج المصاعد . (سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) : أى حُيِّرت ، من السُّكْر ضد الصحو - كما قال عمرو بن العلاء - أرادوا أنها فسدت ، واعتراها خلل كما يعترى عقل السكران فيختل إدراكه ، وهذا المعنى قريب من تفسيرها بِخُدِعتْ وقيل: تسكير الأبصار إغلاقها أو تغطيتها .

التفسير

١٤ - (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ) :

أى ولو فتحنا على كفار مكة باباً من السماء ، ومكناهم من الصعود فيه ، فصاروا يعرجون ويصعدون فيه بآلة أو بغيرها ، وهم يرون ما فى السماء من الملائكة والعجائب فى وضوح واستبانة .

١٥ - (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) :

أى لو فتحنا عليهم باباً من السماء على النحو الذى تقدم بيانه ، لقالوا لفرط عنادهم ومكابرتهم : إنما خُدِعَتْ أبصارنا فلم نشاهد شيئاً على الحقيقة ، بل نحن قوم مسحورون سحرنا محمد حتى تخيلنا هذه المرائى ، كما يتخيل المسحور شيئاً لاحقيقة له ولا تراه العيون على حقيقته .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(بُرُوجاً) : جمع برج وهى فى الأصل بمعنى القصور أو الحصون ، ثم أُطلقت على منازل الكواكب والنجوم لأنها تشبهها فى كونها منازل لها ، كما أن القصور منازل لساكنيها . (شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) : أى مطرود من الرحمة ، أو مَرْمِىٌّ بالرجام وهى الحجارة ، فإنهم يُقْذَفُونَ بشظايا النجوم . (اسْتَرَقَ السَّمْعَ) : أى اختلس بعض ما يسمع من كلام الملائكة . (فَأَتْبَعَهُ [1]) : أى تبعه . (شِهَابٌ) : شعلة ساطعة تمرق فى الجو بسرعة خاطفة . (مُبِينٌ) : أى واضح من أبان اللازم بمعنى اتضح أو مبين غيره وموضحه ، من أبان الشىء أو ضحه .

التفسير

١٦ - (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) :

بعد أن بين الله حال الكافرين بالإسلام والنبوة ومآلهم ، شرع يقيم لهم الأدلة على

(١) يرى الأخفش أن أتبعه بمعنى تبعه ، فليست الهمزة للتعدية ، ومثله ردفه وأردفته ، وقيل غير ذلك - انظر الآلوسى .

وحدانية الله وقدرته وكماله ، لعلهم يتركون الشرك الذى حملهم على تكذيب النبوة المؤسسة على التوحيد .

والمعنى : ولقد خلقنا فى جهة السماء منازل تتنقل فيها الكواكب والنجوم على نظام فائق لايختلف ولايضطرب ، وجعلناه بحيث تترتب عليه مصالح البشر فى معاشهم ، وزينا السماء لمن ينظر إليها ويتأمل فى زينتها وجمالها وإحكامها وتماسكها فى الفضاء بقدرة مبدعها ، ووظائفها التى أنشأها الله من أجلها ، لينتقل الناظر من رؤيتها إلى التفكير فى عظمة مبدعها ووجوب اتصافه بالوحدانية ، وتنزهه عن الشريك والنظير .

١٧ ـ ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ :

أى وحفظنا السماء من كل شيطان مطرود من رحمة الله ، فلا سبيل له ولا لذريته إليها بعد أن أهبطه الله عقاباً على امتناعه عن السجود لآدم بعدما أمره الله به ، وقد استثنى الله بعضهم بقوله :

١٨ ـ ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ :

أى أنه تعالى حفظ السماء من الشياطين إلا من اتجه نحوها واختلس بعض الكلام المسموع الذى يجرى بين أهل الملإ الأعلى من الملائكة ، فإنه لا يمكنُ من الاستمرار فى استماعه واستراقه ، بل يتبعه شهاب بيِّنٌ واضح فيقتله أو يخبله ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الصافات : « إلاَّ منْ خَطِف الْخطْفة فأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ »[1] والشهاب من الشهبة ، وهى بياض مختلط بسواد وليست بالبياض الصافى ، والشهب أجزاءحجرية انفصلت عن الكواكب وجعلت تدور فى الفضاء ، فإذا وصلت إلى جاذبية الأرض جذبتها إليها بسرعة خارقة فتشتعل وتتوهج باحتكاكها الشديد بالغلاف الجوى المشتمل على الأوكسجين الذى يساعد على الاحتراق ، وهو من الظواهر الكونية القديمة ، وقد كان الكهان ينتفعون بما ينقله الشياطين إليهم من أخبار الأرض التى تجرى فى الملإ الأعلى ، فيكتسبون قداسة فى نظر أتباعهم إذا حدثوهم عن الغيوب المنتظرة التى عرفوها من الشياطين المسترقين للسمع ، فوقعت كما أخبروهم بها فلما بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، اشتدت حراسة السماء

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠

بالملائكة والشهب ، لإبطال عهد الكهان بمنع الغيوب عن أن تصل إليهم ، وإقامة صرح الحق الذى بعث به خاتم المرسلين ،وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الجن حكايةعن بعض مؤمنيهم : « وأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُباً (٨) وأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَدًا (٩) » قيل للزُّهْرِى : أكان يُرْمَى فى الجاهلية ؟ قال نعم ، قيل : أفرأيت قوله تعالى : « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » . قال الزُّهْرِى : غُلِّظ وشُدِّدَ أمرها حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾)

المفـردات :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) : أى بسطناها ووسعناها . (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) : أى وخلقنا فيها جبالًا ثوابت ؛ فرواسى جمع راسٍ بمعنى ثابت وفعله رسا بمعنى ثبت ، ومثله أرسى إذا كان لازمًا ، وقد يتعدى ، تقول: أرست السفينة أى ثبتت ووقفت ، وأرسيتها أى أو قفتها وثبَّتُّهَا . (مَّوْزُونٍ) : مقدر بحكمة . (مَعَايِشَ) : أى أسباباً تعيشون بها .

(وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) :قيل المراد بهم الأولاد ، وقيل الدواب والأنعام،والأَوْلى التعميم ليشمل الأولاد والحيوانات التى ينتفع بها . (خَزَائِنُهُ) : أى أسباب تحصيله والاستيلاء عليه . (بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) : بمقدار يعلمه الله وتقتضيه حكمته .

التفسير

١٩ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) :

لايزال الكلام متصلا فى آيات الله ونعمه ، فقد بين الله فى هذه الجملة أنه تعالى مد الأرض ، أى بسطها ووسعها بحيث تكون صالحة لكى يعيش عليها الإنسان والحيوان ، ولإنبات ما يعيشون به . وظاهر النص يفيد أن الأرض خلقت أولا غير ممدودة ، ثم طرأ عليها المد ، حسبما تقتضيه الحكمة فى التدرج التكوينى ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة (النازعات) : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » . ولم يقتصر إنعامه على مجرد مدها ، بل جعلها كالفراش الممهود ، كما قال سبحانه : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ[1] » . وكما أنه تعالى خلق الأرض وبسطها ومهدها ، خلق فيها جبالا شوامخ ثوابت ، لكى تحفظها من الاضطراب بأهلها ، حتى يستريح أهلها عليها ، ولا يتعرضوا للهزات المدمرة الكثيرة ، وكان ذلك منه حكمة فى التكوين ، ورحمة بالعباد وآية على عظمته وجلاله ووحدانيته وكبريائه ، وبسط الأرض لاينافى أنها كروية الشكل ، فإنها لعظمتها ترى كالسطح المستوى فى حين أنها كرة تدور حول نفسها تحت شمسها التى ترتبط بها ، والتعبير عن خلق جبالها عليها بإلقائها فيها ، لإبراز كمال سهولته على الله ، كأنها شىء يسير موجود يلقى بسهولة فى الموضع الذى أريد له ، فسبحان من يقول للشىء كن فيكون .

(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) :

أى أنه تعالى أنبت فى الأرض التى بسطها وفرشها لنا - أنبت فيها - من كل نبات مقدر عنده بحكمة ، ومعلوم له أنه لمصلحة عباده قوتًا أو دواءً ، أو وقاية من داء . ومعلوم له أنه لمصلحة ما سخره لهم من الحيوانات المختلفة .

واستعمال الوزن بمعنى التقدير والعلم معروف فى لغة العرب ، قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّة   عِنْدِى لكُلِّ مخاصِمٍ ميزانُه

---

(١) سورة (الذاريات) : الآية ٤٨

أى عندى لكل خصم تقدير له وعلم به ، وهو معنى مجازى للوزن الذى هو فى الأصل تقدير الشىء بالميزان الحسى المعروف ، فاستعمل هنا فى لازم معناه ، وهو مطلق التقدير والعلم.

وفسر الحسن وابن زيد الإنبات بالإنشاء ، والوزن بمعناه الحقيقى مع إعادة الضمير على الجبال والمعنى على هذا الرأى : وأنشأنا فى الجبال الرواسى من كل شىء يوزن حقيقة ، كالذهب والفضة والنحاس والرصاص إلخ ، والمعنى الأول أظهر .

٢٠ - (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) :

بين الله سبحانه فى الآية السابقة أنه أنبت لنا فى الأرض أقواتنا وما نتقى به العلل والأمراض من مختلف النباتات ، وبين فى هذه الآية أنه يسر لنا فيها أسباب المعايش المختلفة ، ولم يجعلها قاصرة على الزراعة ، كما أنعم علينا بالأولاد والأنعام وتكفل بأرزاقهم والمعنى : وجعلنا لكم فى الأرض التى بسطناها أسبابًا للمعيشة كالصناعة والهندسة والزراعة والطب وغير ذلك من الحرف المختلفة ،وجعلنا لكم أيضا أولادًا تقرٌّ بهم أعينكم ،وأنعامًا تحملون عليها أثقالكم ، وتستكملون بها أرزاقكم ، ولم نكلفكم شيئًا من أرزاق هؤلاء وأولئكم ، بل تكفلنا بأرزاقهم كما تكفلنا بأرزاقكم ، ثم بين أن كل شىء خاضع لتصرفه وحكمته فقال سبحانه :

٢١ - (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ) :

ليس المقصودُ من الخزائن حقيقتها فإنه تعالى لاتختزن مقدوراته فى خزائن ، كما يختزن الملوك نفائس الأموال فيها ، بل الآية فيها أسلوب بلاغى رفيع . ففيها استعارة مكنية تخييلية ، أو استعارة تمثيلية .

والمعنى : وما من شىء من المقدورات التى ينتفع بها الخلائق إلا وهو مقدورٌ لنا خفِىٌّ عن أبصار عبَادنا ، لا تصل إليه عقولهم وعلومهم قبل أن نبرزه لهم ، ونمُنّ به عليهم ، فهو يشبه النفائس الخبيئة فى خزائن الملوك ، فلا تعلمها رعاياهم ، ولا قدرة لهم على

شىء منها ، حتى يبرزوا بعضها لهم ، وينعموا بشىء منها عليهم ثم يختم الله الآية بما يفيد أن الإنعام مضبوط بضوابط الحكمة ، وذلك بقوله تعالى :

(وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) : أى وما ننزل الأمر بالشىء الذى ننعم به على عبادنا إلا مضبوطًا بقدر معلوم يتفق مع الحكمة فى نوعه وزمنه وقدره وأهله استحقاقًا أو ابتلاءً أو إملاءً ، ويجوز أن يكون تنزيل الشىء المنعم به مجازًا عن إبرازه وإيجاده ، والله أعلم - وعبر عنه بالتنزيل لأنه ناشىء عن أسباب سماوية ، فكأنه منزل من أعلى إلى أدنى .

(وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) : أى حوامل بالماء ، جمع لاقح بمعنى حامل ، فهو من قولهم : ناقة لاقح ونوق لواقح إذا حملت الأجنة فى بطونها ، أو مُلقِّحات للشجر كما قال أبو عبيدة وسيأتى بسط الكلام على ذلك فى تفسير هذه الآية . (مِنَ السَّمَاءِ) : من السحاب . (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) : أى فجعلناه لكم مَسْقى تسقون به مزارعكم ، قال الأزهرى : العرب تقول لما كان من بطون الأنعام أو من السماء أو من نهر جار أسقيته ، أى جعلت له منه مسْقًى ، فإذا كان للشَّفَة قالوا سقى ولم يقولوا أسقى ، وقال أبو على : يقال : سقيته حتى

رَوِىَ وأسقيته نهرًا ، أى جعلته شِرْبًا له أى مَوْرِدًا لشُرْبه . (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) : أى وليس لكم شأن فى إيجاده وحفظه لينزل عليكم وقت الحاجة ، أو وليس لكم شأن فى حفظه فى مجاريه وآباره ليكون تحت طلبكم ، فكل ذلك من صنع الله الرحمن الرحيم : (الْوَارِثُونَ) : الباقون بعد فناء الخلق . (الْمُسْتَقْدِمِينَ) : من تقدمكم من الأمم فمات قبلكم (الْمُسْتأْخِرِينَ) : من هو حىٌّ لم يمت بعد . (هُوَ يَحْشُرُهُمْ) : يجمعهم يوم القيامة لفصل القضاء .

التفسير

٢٢ـ (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) :

بين الله تعالى فى الآية السابقة أن كل شىء من أرزاق الخلق ومنافعهم تحت سيطرته تعالى ووفق مشيئته ، وأنه فى يسره عليه واختفائه عن خلقه ، كأنما هو مخزون فى خزائن ، بحيث يسهل إخراجه وإبرازه ومفاجأة عباده به فى أى وقت يشاؤه ، ليدخل به الفرح عليهم ، وأنه حين يبرزه يكون إبرازه بقدر معلوم يتفق مع الحكمة ومصالح العباد ـ وجاء بهذه الآية والتى تليها ، ليبين بعض الأسباب التى أبدعها سبحانه لتوصيل الرزق والخير لعباده بيسر وسهولة .

وَقَبْل الكلام على معنى الآية نقول : إنه تعالى يسلط حرارة الشمس على المحيطات والبحار المالحة والأنهار العذبة والمستنقعات وكل رطوبة فوق سطح الأرض ، فتخرج حرارة الشمس من تلك المياه بخارًا عذبًا لا أثر للملوحة فيه ، ويسلط الله الرياح على هذا البخار لترفعه إلى حيث يكون سحابًا فيبسطه الله فى الفضاء كيف يشاءُ ، ويرزق به من عباده ما يشاءُ ، وبعْد هذا التمهيد نقول فى معنى الآية ما يلى :

المعنى : وأرسلنا الرياح حوامل ببخار الماء وذرات التراب وأسباب الخير والنفع حتى إذا وصلت إلى مستوى معين تحول ما حملته من البخار إلى سحاب كثيف فتصبح الرياح ثقيلة الحمل ،

كما قال تعالى فى سورة الأعراف : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ »[١] أى حملت سحابًا ثقالا .

وقيل « لَوَاقِحَ » بمعنى مُلقِّحات للشجر ، حكى المهدوى عن أبى عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح جمع مُلْقِحة أو مُلْقِح بحذف الزوائد .

فإن كان يقصد أنها تلقح إناث الأشجار بطلع ذكورها ، فذلك واقع بالفعل ، ولكن حمل الآية على هذا المعنى يبعده قوله تعالى عقبه : «فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ » فإن ذلك يؤذن بأنها حوامل بالماء ، أو ملقحات للشجر بالماء الذى ينزله الله من السماء ، ولذا عبر بالفاء التى تفيد أن إنزال الماء من السحاب مترتب على كون الرياح لواقح بالماء والله تعالى أعلم .

(فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) :

أى فأنزلنا من السحاب الكثيف الذى أقلته الرياح – أنزلنا – منه مطرًا ، فأعددناه وهيأناه لسقياكم وزروعكم ومواشيكم ، حيث حفظناه فى بحيرات وأجريناه فى أنهار وجداول واختزنا بعضه فى جوف الأرض ، لكى تنتفعوا به وقت الحاجة بحفر الآبار وتفجير العيون .

(وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) :

أى أن هذا المطر الذى ننزله من السحاب لم تختزنوه أنتم ، ولا علم لكم به من قبل أنْ يأتيكم ، أو لستم له بحافظين فوق سطح الأرض أو فى جوفها ، لتنتفعوا وقت حاجتكم بل الله تعالى هو الذى سخر لكم أسبابه ، وحفظه لكم فى مجاريه وخزائنه ، وهو قادر على إمساكه عنكم ، والذهاب به إذا أتاكم ، كما قال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » .

وبعد أن بين أنه تعالى مصدر أرزاقهم ، عقبه ببيان أنه هو الذى يحييهم ويميتهم ويرثهم فقال :

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ٥٧

٢٣ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) :

أى وإنا لنحن الذين ننشئكم من العدم ، ونجعلكم أحياء ترزقون ، ونحن الذين نميتكم وننزع الروح من أجسادكم ، ونحن الوارثون لكم ولأموالكم ولكل شىء فى هذا الوجود وكل ما أعطيناه للخلق فهو عارية مستردة ، والملك لله الواحد القهار .

٢٤ - (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) :

أى ولقد علمنا من سبقوكم من بنى جنسكم ، فإنا نحن الذين أحييناهم وأمتناهم ، وعلمنا أيضاً المتأخرين ممن هم أحياء أو سيوجدون بعدكم ، فإن الخالق الرازق الوارث لايغيب عن علمه شىء ، وكيف يغيب أحد من خلقه عن علمه وهو الذى سيحشرهم ليجازيهم كما ينطق به قوله سبحانه :

٢٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) :

أى وإن ربك أيها الرسول هو وحده الذى يحشرهم ويجمعهم للحساب والجزاء على حسب أعمالهم ، لأنه تعالى حكيم يضع الشىء فى موضعه ، فلا يسوى محسناً بمسىء ، واسع العلم فلا يغيب عنه عمل عامل - وبعد أن بين الله تعالى أن مصير العباد إليه وجزاءهم عليه ، شرع يبين قصة آدم مع إبليس ، ليعرف البشر عداوته لهم فيحذروه ، فقال سبحانه :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(صَلْصَالٍ) : هو الطين اليابس الذى إذا نقر يكون له صوت ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ، وبهذا قال معظم المفسرين ، وقال مجاهد : الصلصال هو الطين المنتن واختاره الكسائى وهو مأخوذ من قول العرب : صَلَّ اللَّحْمُ وأَصَلَّ إذا أَنْتَنَ .

(مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) : أى من طين أسود مُنْتِن ، وفسره بعضهم بُمصَوَّر ، ومنه سُنَّةُ الوجْهِ أى صُورته ، قال حمزةُ يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أغر كَأَن البدر سُنَّةُ وجهــــه جلا الْغَيْمَ عنه ضوْؤُهُ فتَبَدَّدَا

وفسره بعضهم بمصبوب ، من سنّ المـاء صبّه . (وَالْجَانَّ) : قيل هو أبو الجن ـ وروىعن ابن عباس ، وقيل هو اسم لجنس الجن ـ كما قاله ابن بحر ، وقيل هو إبليس وروى عن الحسن وقتادة ـ (نَارِ السَّمُومِ) : المراد بها النار التى لادخان لها ـ كما جاء فى إحدى الروايتين عن ابن عباس .

التفسير

٢٦ ـ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) :

المراد من الإنسان هنا أصله وهو آدم عليه السلام ، أو الجنس كله تبعاً لأصله والمعنى ولقد أوجد الله آدم عليه السلام من طين جاف مُتحوِّل من طين أسود منتن وقد كان أساسه الأول تراباً[1] ، فلما خلط بالماء صار طيناً [2] ، فلما اسود وأنتن صار حمأً مسنوناً ، فصور الله منه تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل أى ظهر لنقره صوت بسبب جفافه ، ثم غيره الله طورا بعد طور حتى نفخ فيه الروح بعد أن تمت صلاحيته لنفخها فيه فتبارك الله أحسن الخالقين .

٢٧ ـ (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ) :

قد علمت فى بيان معانى المفردات اللغوية ، أن بعض العلماء فسر الجان بأنه جنس الجن ، وعلى هذا الرأى تكون هذه الآية الكريمة مسوقة لبيان أن الله تعالى خلق الجن كما خلق الإنس وأنهم خلقوا قبل آدم ، وأنهم خلقوا من نار ، بخلاف آدم فقد خلق من طين

---

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الروم : «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» .

(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة المؤمنون : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» .

كما علمت أن بعضهم فسر الجان بإبليس، ليناسب ماسيأتى فى قصة آدم من أنه امتنع عن السجود له لأنه خلق من نار، وخلق آدم من حمإ مسنون، وكل من الرأيين أهل للاعتبار والقبول. «السَّمُوم»: الريح الشديدة الحرارة سميت بذلك لأنها تنفذ فى المسام، وقيل هى نار لا دخان لها - رواه الضحاك عن ابن عباس، وعليه فإضافة النار إلى السموم من إضافة العام إلى الخاص.

والمعنى: وجنس الجن أو إبليس خلقه الله من قبل آدم، وكان خلقه من نار شديدة الحرارة لاشىء فيها من الدخان.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾)

المفردات:

(مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ): تقدم بيانها.

(سَوَّيْتُهُ): جعلته سويًّا معتدلا.

(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى): ونشرت فيه من الروح المنسوب إلىّ نسبةَ تشريف وملك وإيجاد، فأرواح العباد منسوبة إلى الله نسبة ملك وإيجاد، وليست جزءًا من روحه تعالى، فهو منزه عن التجزئة والتبعيض.

(فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ): فخِرُّوا لآدم خاضعين.

التفسير

٢٨ - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ :

أجمل الله قصة خلق الإنسان فى قوله سابقًا : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » . وقصة خلق الشيطان فى قوله : « وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ » . تمهيدًا للحديث المفصل الذى تحكى فيه هذه الآية وما بعدها من الآيات ماجرى بين الله وبين ملائكته فى شأن خلق آدم وأمرهم بالسجود له ، وخضوعهم لأمره سبحانه ، وعصيان إبليس تكبرًا وغرورًا ، ووسوسته لآدم حتى أخرجه من الجنة ، ووعيده بإغواء ذريته إلا عباد الله المخلصين إلى آخر ما سيأتى بيانه فى الآيات الواردة فى هذا الشأن ، والغرض من سوق هذه القصة تحذير عباد الله من وسوسة الشيطان الذى أغوى أباهم آدم ، وهو لإغوائهم وإضلالهم بالمرصاد ، حتى يحذروه ولا يغتروا بوسوسته ، فالخطاب فى الآية وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، فالمقصود منه بيان القصة لأمته عن طريقه ، لأنه إمامهم - صلى الله عليه وسلم -

والمعنى : واذكر أيها الرسول لأمتك وقت أن قال ربك للملائكة - إنى خالق فى الأرض إنسانًا من صلصال من حمإ مسنون ليكون فيها خليفة عنى فى عمارتها وتنفيذ شريعتى فيها ، أو خليفة عمن سبقه فى سكناها بعد ما هلكوا ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً [1] » ، وسمى الإنسان بشرًا لظهور بشرته ، وهى ظاهر الجلد ، حيث لا يوجد عليها صوف ولا وبر ونحوهما بخلاف سائر الحيوانات .

وبعد أنْ ذكرنا فى تفسير الآية السابقة : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » أن المراد من الصلصال الطين الجاف الذى يصلصل ويصوت إذا نُقر ،

---

(١) سورة البقرة من الآية ٣٠

وأن المراد من الحمإ المسنون الطين الأسود المنتن ، بعد أن ذكرنا هذا نقول :

من العلماء من فسر الصلصال بالطين المنتن وهو رأى مجاهد واختاره الكسائى ، وهو مأخوذ من قولهم صلَّ اللحم أى أنتن ، ومنهم من فسَّر المسنون بالمُصوَّر ، ومنه سُنَّة الوجه أى صورته ، ومنهم مَنْ فسَّره بمصبوب - كما تقدم بيانه ، وعلى هذه الآراء اللغوية ، يكون تفسير الآية ما يلى :

واذكر أيها الرسول حين قال ربك للملائكة إنى خالق إنسانًا من طين منتن مصبوب على صورة بشر . فسبحان مَنْ ينقل الشىء بقدرته من النقيض إلى النقيض .

٢٩ - (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) :

التسوية جعل الشىء سويًا معتدلا ، وتسوية بشر من صلصال من حمإٍ مسنون جعل الصلصال المذكور فى صورة بشر سوى صالح لنفخ الروح فيه ، بأن ينقله الله من طور إلى طور إلى أن يصبح لحمًا وعظمًا وأعصابًا وشرايين وأوردةً تسرى فيها روح الحياة - والنفخ فى الشىء هو دفع الريح فيه بالفم أو غيره ، ونفخ الروح فى تمثال آدم المتطور ليس من هذا القبيل ، بل هو تمثيلٌ لِنشْرِ الروح فى جميع أجزائه ، فلم يكن فى بث الروح فيه نفخ ولا نافخ على الحقيقة ، وقد اختلف العلماءُ فى تعريف الروح ، فمنهم من قال إنه جسم شفاف يحل بالجسد ويسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر ، ومنهم من قال إنه عرض يحل بالقلب أو الدماغ حلول العِلْمِ فى العالمِ ، ومنهم من قال إنه جوهر مجرد ليس داخل البدن ولا خارجه ، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه . والأسلم عدم الخوض فى تعريفه ، فقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وما أُوتِيتُمْ مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [1] ». وخيرُ ما يقال فيه إنه سر من أسرار الله تحيا به الأبدان حينما يتصل بها ، وتموت حينما ينفصل عنها .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٥

والروح مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، وقد أضافه الله إلى نفسه تشريفًا وتكريماً ، كقوله فى الأرض والسماء أرضى وسمائى مثلا ، وفى البيت الحرام بيتى أو بيت الله. وفى ناقة صالح ناقة الله ، وفى الشهر الحرام شهر الله .

وهذه الآية ترد على النصارى الذين استدلوا من القرآن على أن المسيح ابن الله ، بنحو قوله تعالى : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنا »[١] فقد زعموا أن هذا النص وأمثاله يدل على أن المسيح جزء من روح الله وبعض منه ، فيكون بهذه البعضية ابن الله ، لأن الولد بعض أبيه ووجه الرد عليهم بهذه الآية أنه لو كان فهم الآية على نحو ما زعموا لاقتضى ذلك الفهم السقيم أن يكون آدم ابنًا لله ، لأنه قد وَرَدَ فيه مثل ما ورد فى عيسى وذلك قوله هنا : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ».وأنتم لاتقولون بذلك فلا وجه للتفرقة بينهما فى دلالة النص ، فإذا لم يدل النص فى آدم على بنوته لله، بل على أنه مخلوق شريف من مخلوقات الله ، فكذلك النص الوارد فى عيسى ، فرُوحُه مضافة إلى الله إضافة المخلوق للخالق تشريفًا وتكريماً ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[٢]

ومعنى الآية إجمالا : فإذا جعلت هذا البشر من الصلصال سويا معتدلًا متطورًا بحيث يصلح للحياة نفخت من الروح المنسوبة إلىَّ خلْقًا وشرفًا –إذا فعلت ذلك بهذا البشر– فخروا له ساجدين ، تحية وتكريماً .

وقيل أمروا بالسجود لله عبادة وتعظيمًا عند تسويته آدم ونفخ الروح فيه ، والمعنى الأول أنسب .

٣٠– (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) :

أى فسجد الملائكة لآدم بعد تمام خلقه ونفخ الروح فيه ، تحقيقًا لما شرطه الله وأوجبه

(١) سورة التحريم الآية : ١٢

(٢) سورة آل عمران الآية : ٥٩

عليهم قبل خلقه ، من السجود له بعد تمام خلقه ، ولم يتخلف عن السجود إلا إبليس كما حكاه الله بقوله :

٣١ - (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) :

أى فسجد الملائكة جميعًا إلا إبليس ، فإنه امتنع من أن يكون معهم فى سجودهم ، وقد اعتبره الله آثماً بامتناعه عن السجود معهم ، وعاقبه بإخراجه من الجنة ولعْنِه كما سيأتى بيانه .

فإن قيل : إن الأمر بالسجود موجه إلى الملائكة ، وإبليس ليس منهم بل هو من الجن ، لقوله تعالى فى سورة الكهف : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه ». ولأنه لو كان من الملائكة لسجد ، لأنهم كما قال الله فيهم : « لَايَعْصُونَ اللهَ مَاأَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ[1] » وإذا لم يكن من الملائكة فكيف اعتبر آثماً مع أن الأمر بالسجود لايتناوله ، لأنه خاص بالملائكة ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة نختار منها اثنين .

أحدهما : أنه وإن لم يكن من الملائكة نوعا فهو منهم إقامة ، حيث كان يقيم بينهم ، فيسرى عليه ما يسرى عليهم من التكاليف ، كالرجل يعيش فى غير قبيلته ، فتسرى عليه أحكام القبيلة التى يعيش فيها .

ثانيهما : أنه كان مأمورًا بأمر خاص به ، ولم يصرح به فى التكليف ابتداء ، اكتفاء بالإشارة إليه فى التوبيخ صراحة على عصيانه ، وذلك بقوله تعالى فى سورة الأعراف : « قال مَا مَنَعكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُك[2] » .

(١) سورة التحريم من الآية : ٦

(٢) سورة الأعراف من الآية : ١٢

(قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مَالَكَ أَنْ لا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) : أىُّ سبب لك فى عدم سجودك مع الملائكة . (حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) : طين أسود منتن . (رَجِيمٌ) : مطرود من كل خير ، وأصل الرجم الضربُ بالرِّجام وهى الحجارة ، ثم كُنى به عن الطرد . (اللَّعْنَة) : أى الإبعاد على سبيل السخط .

التفسير

٣٢ - (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) :

أى قال الله لإبليس توبيخًا له بعد امتناعه عن السجود لآدم : أى سبب لك فى أن لا تكون مع الملائكة الساجدين له استجابة لأمرى ، وتعظيما لقدرتى .

٣٣ - (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) :

أى قال إبليس لربه بعد أن وبخه على تركه السجود لآدم : لايستقيم منى وقد خلقتنى من نار ، أن أسجد لبشر خلقته من طين جاف أصله من طين أسود منتن ،ويعنى بذلك أن مادته التى خلق منها وهى النار ، أشرف من المادة التى خلق منها آدم وهى الطين الأسود المنتن ، فهو بذلك أعظم منه أصلا - كما زعم - ، فكيف يسجد مَنْ أصله أعظم ، لمن أصله دونه ، وقد أخطأ اللعين فى هذا القياس ، فإنه لافضل للنار على التراب ، فالتراب أساس لكل حى ، والنار تهلك كل حى ، كما أن الفضل ليس باعتبار المادة وحدها ، فلا بد من أن

يضاف إليها الصورة والفاعل والغاية ، والتحلى بالفضائل والتَّخلى عن الرذائل ، وآدم قمَّةٌ فى هذا كله ، فقد خلقه الله فى أحسن تقويم ، وخلقه من غير واسطة وبلا وسائل ، كما يشير إليه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ » . كما أن الغاية من خلق آدم وذريته الخلافة عن الله فى الأرض وأنه كان فى أعلى مكارم الأخلاق ، فأين مِنْ هذا كله خلقُه من نار .

٣٤ـ (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) :

أى قال الله لإبليس ، بعد أن أعلن استعلاءه وتكبره على آدم ـ قال الله لإبليس ـ اخرج من زمرة الملائكة أو من منزلة الكرامة التى كنت فيها أو الجنة ـ اخرج منها ـ فإنك مرجوم ومطرود من كل خير وكرامة .

وقيل : المراد من كونه رجيما أنه وجميع الشياطين سوف يُرْجَمُون بالشهب ، فيكون فى هذا المعنى إشارة لطيفة إلى أن اللَّعين لما افتخر بالنار توعده الله بالتعذيب بها فى الدنيا : كعابد النار يهواها وتحرقه .

٣٥ـ (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) :

أى وإن عليك الإبعاد من رحمة الله إلى يوم الجزاء ، فلا يوفقك فى الدنيا للتوبة من شقوتك ولا يمدك فيها بقبس من هداية ، ولا يعفو عنك فى الآخرة ، بل يجعل مقرك النار وبئس القرار .

وقيل إن المراد باللعنة هنا لعنة الخلائق له ، بأن يكون موضع سخطهم وطلبهم من الله إلى يوم الجزاء أن لا يرحمه ، والمقصود منه يوم النفخة الأُولى التى يموت عندها الخلائق ، فإنه من يوم الدين ، لأنه مقدمة له ، والتفسير الأول أوْلى .

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(فأنظِرْنِى) : فأخِّرْنِى ، الإنظار التأخير . (إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) : المراد من اليوم الحين مطلقًا ، أى إلى حين الزمن المعلوم لله دون سواه .

التفسير

٣٦ - (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

بعد أن سمع إبليس حكم الله عليه بالطرد من رحمته ودار كرامته ، وبشديد عقوبته ، سأل ربه سبحانه أن يؤخر موته إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته للجزاء ، وقد أراد الخبيث بذلك أمرين : أحدهما : أن يتسع له المدى لإغوائهم ، حتى يشتركوا معه فى سوء مصيره ، وليأخذ ثأره كاملا منهم ، فإنهم سبب شقائه ، فإن عدم سجوده لأبيهم كان السبب الأول فى نكبته ، ولو كان عنده إنصاف لأدرك أن غروره وكبرياءه هما محورُ شقائه . والغرض الثانى : من طلبه الإمهال إلى يوم البعث أن ينجو من الموت - إذ لا موت بعد البعث ، وإلى هذا الغرض ذهب ابن عباس والسدى وقد حكى القرآن ما أجاب به الله على سؤال إبليس بقوله :

٣٧ ، ٣٨ - (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) :

أى فإنك من المؤخرين إلى حين الزمن المعلوم لله وحده ، وتنتهى عنده حياة الخلائق وهو وقت النفخة الأولى كما قال سبحانه : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا من شَاء اللهُ »[١] ، فتموت حينئذ كما يموتون ، مصداقا لقوله تعالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ».[٢] ولن أؤخرك إلى يوم البعث كما طلبت لِتفِرَّ من الموت كما أردت.
وهنا سؤلان ؛ أحدهما :كيف كلَّمهُ الله ؟ وثانيهما :كيف أجابه الله إلى ما سأل مع أن فيه شقاء خلقه ؟

والجواب عن الأول : أنه تعالى كلَّمهُ على لسان ملك يبلغه ، أو كلمه وهو يسمع تغليظا عليه ، وتشديداً فى الوعيد . وليس على وجه التكريم والتقريب .

والجواب عن الثانى : أنه تعالى منحهم ما من شأنه حمايتهم من شره ، وهو نور العقل ، ودوافع الخير ، وآيات الهدى ، ودعاة المثل العليا من النبيين والمرسلين والصديقين ، فهذه العوامل تمثل فى الروح أسباب المناعة الخُلُقية ، كما تمثل الكُرَاتُ البيضاءُ فى الدم أسباب المناعة من الأمراض الجسدية ، وصدق الله تعالى إذ يقول فى سورة العنكبوت : « الٓمٓ.أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُون . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » .

ولقد أدرك الشيطان قيمة الحماية التى منحها الله عباده ، فاعترف بها إثر وعيده وذلك ما يحكيه الله بقوله :

(قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(بِمَا أَغْوَيْتَنِى) : بسبب إغوائك إياى ، والمراد من إغواء الله إياه قضاؤه عليه بالغواية بسبب تكبره وعدم خضوعه لأمره تعالى . (الْمُخْلَصِينَ) : الذين أخلصتهم لطاعتك .

---

(١) سورة الزمر من الآية ٦٨

(٢) سورة الرحمن الآية ٢٦

التفسير

٣٩ـ (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) :

بعد أن سمع إبليس الحكم من الله بإنظاره وإمهاله ؛ قال يارب بسبب حكمك علىَّ بالغواية من أجل آدم ، لأُحسِّنَنَّ لذريته فى الأرض المعاصى وأسباب الضلال حتى يضلوا ويكونوا أجمعين شركائى فيه ، فلا أبقى فيه وحدى ، وكما قدرتُ على إغواء أبيهم فى الجنة حتى عصى ، فإننى سأقدرُ على إغواء بنيه فى الأرض حتى يعصوا ،ولما أدرك اللعين أنه تعالى قد يمنح عباده الصالحين الحماية منه، احتاط فاستثناهم من وعيده وذلك مايحكيه الله بقوله :

٤٠ـ (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) :

أى لأُضلَّنَّ ذرية آدم أجمعين ، إلا عبادك الذين أخلصتهم لطاعتك ، وحصنت نفوسهم من الخضوع لعوامل الشر والضلال ، والتأثر بمغريات المعاصى ، فهؤلاء لا سبيل لى إليهم ولا سلطان لى عليهم .

(قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(صِرَاطٌ عَلَيَّ) : طريق ألتزم به . (سُلْطَانٌ) : تسلط واستيلاء .

(الْغَاوِين) : الضالين عن الهدى . (جُزْءٌ مَّقْسُومٌ) : فريق مفروزٌ فى علمنا مميز .

التفسير

٤١ - (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) :

لما استثنى إبليس المخلصين من التأثر بإغوائه ، لما أدركه فيهم من الحصانة الدينية والطهارة النفسية التى وهبها الله لهم ، قال الله مؤكدا حمايته وحفظه لهم : هذا الذى قلته أنت مِنْ أنَّ المخلصين لا سبيل لك عليهم ، طريق ومنهج مستقيم (عليَّ) أن ألتزم به نحوهم ، فلا أُسلطك عليهم ، بل أحميهم من وسوستك وإضلالك إياهم - وقد ألزم الله تعالى نفسه بذلك تفضلا منه على عباده المخلصين ، حماية لهم من إغوائه - وقال مجاهد والكسائى فى تفسير الآية : هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهدِّدُهُ : طريقك عليَّ ، ومصيرك إليَّ ، وكقوله تعالى : « إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ ». فكأن معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إليَّ فأُجازى كلاًّ بعمله - يعنى طريق العبودية - .

٤٢ - (إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) :

فى هذه الآية تأكيد ثان لحماية الله للمخلصين من سلطان الشيطان عليهم ، كما أن فيها الإخبار بخذلانه للمُصِرِّين على الغواية .

والمعنى : إن عبادى الذين خلقتُهم لكى يعبدونى ليس لك يا إبليس تسلط عليهم ينتهى بهم إلى الضلال المخرج من رحمة الله ، إلا من اتبعك من الضالين بسوء اختياره ، فإنه يخضع لسلطانك ، ويتأثر بإضلالك ، ويشترك معك فى سوء مصيرك .

فإن قيل إن آدم وحواء من عباد الله المخلصين « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطَانُ » وإن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم « اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » وبذلك يكون له سلطان حتى على المخلصين. فالجواب : أن المقصود - والله أعلم - أنه ليس له سلطان على إيمانهم وقلوبهم بحيث يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفو الله ويضيقه عليهم ، فإيمانهم متين وقلوبهم طاهرة ، فإن هم أذنبوا تابوا - والتوبة تمحو الحَوبة - ثم توعد الله المصرين على الغواية فقال :

٤٣ - (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى وإن النار لموعد إبليس والغاوين أجمعين ، لا يتخلف عنها منهم أحد ، ثم بين الله أنها طبقات ، لكل طبقة فئة منهم فقال :

٤٤ - (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ) :

فالمراد من أبواب النار طبقاتها ودركاتها ، فكما أن الجنة درجات فالنار دركات ، وقد جعل الله لكل طبقة من السبع فريقا معلوما ، وقسما معينا ، فيدخل كل فريق فى الطبقة التى تناسب معاصيه وعقائده ،وقيل الأبواب على معناها المعروف ، وإنما تعددت لكثرة من يدخل النار والله تعالى أعلم .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَعُيُونٍ) : المراد بها أنهار الجنة ، وقيل غيرها . (بِسَلَامٍ) : بسلامة من الآفات . (مِن غِلٍّ) : من حقد وعداوة . (نَصَبٌ) : تعب وإعياء .

التفسير

٤٥ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) :

بعد أن أنذر الله من اتبع الشيطان من الغاوين بسوء المصير بقوله : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ». جاءت هذه الآية وما بعدها لتبشير

من اتقى ربه وعصى إبليس بحسن المصير ، وبضدها تتميز الأشياءُ – والمراد بالمتقين الذين يدخلون الجنة من اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب يكفرها نحو الصلاة[١] ، وقال الآلوسى : نقل الإمام عن جمهور الصحابة والتابعين– وذكر أنه رأى ابن عباس – أن المراد بهم من اتقوا الشرك والكفر – ثم قال – وهذا هو الصحيح ، ثم أقام الدليل على ذلك حتى قال : فثبت أن الحكم المذكور يتناول جميع القائلين : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كانوا من أهل المعصية . . . الخ .

ونحن نقول : ينبغى أن يقيد دخولهم الجنة إن كانوا من أهل المعاصى، بأنهم تابُوا عنها وقبل الله توبتهم ،أو كانوا ممن غلبت حسناتهم على سيئاتهم ، فإن لم يكونوا من هؤلاء أو أولئك فإنهم يدخلونها بعد عقابهم فى النار على سيئاتهم ، تطبيقا لأدلة الوعيد على المعاصى الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله إلا أن يعفو الله فإن الأمر كله لله .

ومنْ يمت ولم يتب من ذنبه   فأمره مفوض لربه

والمراد بالعيون الموجودة بالجنة أنهارها المذكورة فى قوله تعالى : «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ[٢] . . . » الآية ، ويحتمل أن تكون عيونا ومنابع أخرى لا يعلمها إلا الله .

والمعنى : إن الذين يتقون الكفر والفواحش يعيشون فى الآخرة فى جنات عظيمة الشأن دانية الثمار ، ومن حولهم عيون وينابيع تجرى مياهها بين الجنات ، فتضفى عليها الجمال والحسن ، ليكمل بها متاعهم .

٤٦ – (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ) :

أى يقال لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنة ،ادخلوها سالمين فيها من الآفات فى أجسادكم آمنين من أن يطرأ عليكم ما يخيفكم – ويجوز أن يراد من دخولهم بسلام أنهم يدخلون مسلَّماً عليهم مرحَّبًا بهم ، ويراد من أمنهم ما يعم الأمن من الآفات الجسدية والروحية .

(١) كما نقله الزمخشرى فى (كشافه) عن ابن عباس .

(٢) سورة محمد من الآية ١٥

٤٧ ـ (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) :

أى وأخرجنا ما فى صدورهم من حقد وعداوة كانت بينهم فى الدنيا ، فدخلوا الجنة إخوانا متحابين ، على أسرة متقابلين ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض فى صفاء ومودة ولا يتدابرون ، أخرج ابن جرير وغيره عن أبى أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على مافى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا تدانوا وتقابلوا على السرر نزع الله مافى صدورهم فى الدنيا من غل : ويحتمل أن يكون نزع الغل من صدورهم كناية عن نزع أسبابه ، وأنهم يعيشون فى الجنة متحابين لأنهم مغمورون بنعم الله وأسباب الصفاء والمودة ، فلا يجدون فيها ما يوجب البغضاء كما كانوا يجدون فى الدنيا .

٤٨ ـ (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَاهُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ) :

أى لا يصيبهم فى الجنات أى تعب ، فإنَّ أرزاقهم ميسَّرة من غير كدٍّ ولا سعى « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً »[1] . ويقوم بخدمتهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، قال تعالى فى سورة الإنسان : « وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كَانَتْ قَوارِيرًا ، قَوارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا »[2] . الآيات ـ وكما أنهم لا يمسهم فى الجنة تعب ، فهم ليسوا منها بمخرجين بل هم خالدون فيها أبدًا ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وليجتهد المجتهدون ـ والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة الإنسان الآية : ١٤

(٢) سورة الإنسان الآيات : ١٥ ـ ١٩

(۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾)

المفـردات :

(نَبِّئْ) : أى خبِّر وبلغ ، من النبإ ، وهو الخبر مطلقاً وقيل هو الخبر الخطير ذو الشأن ، وهو الأنسب هنا ؛ قال الراغب : النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة . يحصل به علم أو غلبة ظن . . ثم قال : ونبأته أبلغ من أنبأته . (ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) : الضيف من مال إليك نازلا بك ، والأفصح ألا يُثنَّى ولا يجمع ، ويأتى بيان المراد بضيف إبراهيم فى التفسير (وَجِلُونَ) : أى خائفون ، وفعله وجل يوجلْ كفزع يفزع . وفى الراغب : الوجل : استشعار الخوف .

التفسير

٤٩ - (نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة ماتوعَّد به الغاوين من عذابه ، وما وعد به المتقين من ثوابه ، أكَّد سبحانه فى هذه الآية وعده ووعيده ، بما اتصف به من عظيم مغفرته وواسع رحمته وشديد عقابه ، تقريرًا لما ذكر ، وتمكيناً له فى النفوس : فأمر رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ أُمته جميعًا - المتقين منهم وغير المتقين - أن الله تبارك وتعالى هو العظيم الغفران ، الواسع الرحمة .

كما أمره أن يبلّغهم أن عذاب الله هو العذاب الأليم ، أى البالغ الغاية فى الشدة والإيلام لايشبهه عَذَاب غيره ولا يدانيه ، فقال جلّ وعلا :

٥٠ـ (وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) :

وفى معنى الآيتين قوله سبحانه : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ »[1] . وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه : « إنَّ الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ؛ فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة : فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة ، لم ييئس من الجنة ؛ ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب ، لم يأمن من النار »[2] . وقد نبهت الآيتان على مقامى الرجاء والخوف ، ولابد للعبد من الجمع بينهما ؛ وينبغى أن يكونا سواءً مادام العبد صحيحا معافى ؛ فإن المبالغة فى الرجاء تفضى به إلى تسويف الصالحات أو إهمالها ؛ والمبالغة فى الخوف تفضى به إلى القنوط واليأس ! وخير الأمور أوساطها .

وقيل يُغلِّب الخوف على الرجاء فى حال صحته .فأما إذا مرض فليغلِّب الرجاء على الخوف حتى إذا دنت أمارات الموت فليكن رجاؤه فى ربه وإحسان الظن به محضاً خالصاً ، ولا سيما حال احتضاره ؛ فإنه حينئذ قادم على رب كريم ذى فضل عظيم سبقت رحمتُه غضبَه وعذابه ، وقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لايموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » وروى مسلم عن جابر أيضًا قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « يُبعث كل عبد على مامات عليه » . وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضىَ الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »[3] .

(١) سورة الرعد من الآية : ٦

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ، فى باب الرجاء والخوف ، ومسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه » .

(٣) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قول الله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده » ومسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه .

ولعل فى تقديمه سبحانه الوعد على الوعيد – مع زيادة فى تأكيد الوعد – تنبيهاً على هذا الفضل .

ولما أجمل الله سبحانه وعده ووعيده فى الآيتين السابقتين ، فصّل بعض ما أجمل فى الآيات التالية فذكر طائفة من أنباء رحمته وعذابه مما وقع فى هذه الدار ، عبرة وتذكرة لما يكون فى الدار الآخرة ، ساقها سبحانه ممثلة فى قصة خليله إبراهيم وبشارته ، ونبيه لوط ونجاته ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر ، وما حل بهم جميعاً من عذاب لا تزال آثاره باقيةً مرئية . وبدأ بقصة أبى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فقال آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم :

٥١ – (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) : أى أخبر أمتك أيها النبى عن ضيف إبراهيم خليله ؛ ليعتبروا بما جرى له ولابن أخيه لوط عليهما السلام من البشرى فى تضاعيف الخوف – على ما يأتى بيانه – والمراد بضيف إبراهيم : رسل من الملائكة أرسلهم الله تعالى فى صور بشر إلى قوم لوط ليهلكوهم ، ومروا فى طريقهم بإبراهيم ليبشروه بغلام عليم ، وبهلاك القوم المجرمين – وهم – على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما – جبريل وملكان معه ، وقيل أكثر من ملكين ، على خلاف بين المفسرين ، مع اتفاقهم على أن جبريل عليه السلام أولهم . وكانوا فى صور شبان حسان الوجوه .

وقد تقدمت قصتهم فى سورة هود فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » الآيات (١) . وتأتى فى سورة الذاريات فى قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢) » . الآيات .

---

(١) ٦٩ – ٨٣

(٢) من ٢٤ – ٣٧ .

والقصة فى هاتين السورتين أكثر تفصيلاً مما وقع فى هذه السورة . والقرآن الكريم يكمل بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويتعين رَجْع بعضه إلى بعض فى القصة الواحدة . قال جل ثناؤه :

٥٢ ـ (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ) :

أى اذكر أيها الرسول حين دخل هؤلاء الأضياف على إبراهيم وحيّوه فقالوا سلاماً ، أى قالو هذا اللفظ تحية له . أى نسلِّم عليك سلاماً فقال ردًّا لتحيتهم عليكم سلام ، إلا أن الرد لم يذكر فى هذه السورة اكتفاء بذكره فى سورتى هود والذاريات ، كما لم يذكر مجيئه بالعجل السمين الحنيذ ، أى المشوى ، اكتفاء بذكره فى السورتين كذلك .

وكان عليه السلام كريماً غاية الكرم ، وكان يقال له ـ فيما يؤثر ـ أبو الضِّيفان ، ولا عجب فقد جاد بنفسه لربه الأكرم .... والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

قال إبراهيم عليه السلام لضيوفه لما امتنعوا عن الأكل ، وقد قدم إليهم العجل : (إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ) : أى خائفون فزعون، لما جرت به العادة عندهم أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير ! لهذا نَكِرهم قبل أن يُعلموه أنهم رسل الله ، وأوجس منهم خيفة ثم صرح بخيفته فقال : « إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ » . وفى سورة هود : « فَلَمَّا رأى أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَاتَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ »[1] .

٥٣ ـ (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) :

طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام : إذ قالوا له لاتوجل أى لا تخف ولا تفزع ، ولكى يزيلوا خوفه بشروه بغلام عليم ليعلم سر مجيئهم إليه ، والمراد من كونه غلاماً عليماً أنه يكبر ويكون عظيم القدر كثير العلم ، وهو إسحق عليه السلام من امرأته ـ واشتهر أن اسمها سارَة ـ وقد بشروها أيضاً بيعقوب من ورائه كما جاء فى قوله تعالى : « فَبَشَّرْنَاهَا

(١) الآية ٧٠ .

بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ »[1] . وفى هذه البشارة إشارة إلى بقاء الخليل وأهله فى سلامة وعافية زماناً طويلا .

وأما الغلام الحليم فى قوله تعالى : « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » فالمراد به ابنه البكر إسماعيل من جاريته هاجر وهو الذبيح . وتأتى قصة ذبحه فى سورة الصافات[2] .

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(مَسَّنِيَ الْكِبَرُ) : أى أدركنى وأصابنى كبر السنّ . (بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت المحقق .

(الْقَانِطِينَ) : أى اليائسين ، من القنوط وهو اليأس ، والمراد اليأس من الولد .

(الضَّالُّونَ) : أى المخطئون طريق الصواب والحق .

التفسير

٥٤ - (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) :

أى قال إبراهيم عليه السلام للملائكة متعجبا من تبشيرهم إياه بالولد مع كبر سنه وشيخوخته - وقد جرت العادة بعدم الولادة فيها - كيف تبشروننى بالغلام وأنا على هذه الشيخوخة ؟ ! ثم أكد عجبه فقال بصيغة الاستفهام التعجبى :

(١) هود : من الآية ٧١

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٠١ - ١٠٧

(فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) : أى فبأى أعجوبة تبشروننى ؟ ! إن البشارة بما لم تجربه العادة ! أمر يدعو إلى العجب .

٥٥ ـ (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ) :

أى قالت الملائكة مجيبين إبراهيم عليه السلام : بشرناك بالأمر المحقق الثابت الذى لاريب فيه ولا لبس ، فلا تكن من اليائسين من خرق العادة لك ؛ فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين : فكيف لا يخلقه من شيخ فان وعجوز عاقر ؟ وكان تعجبه عليه السلام مما بشربه لمخالفته للعادة لا لأن الله تعالى لايقدر على مثله فإنه يعلم من قدرة الله تعالى ما هو أعظم من ذلك ؛ ولهذا قالت الملائكة له : « فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ » : ولم يقولوا له : فلا تكن من الممترين أو الشاكين . ولهذا أيضاً :

٥٦ ـ (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) :

والاستفهام هنا إنكارى معناه النفى ، أى لاييئس من رحمة ربه إلا الخاطئون المنصرفون عن طريق الحق والصواب والمعرفة ، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى ولا كمال علمه وقدرته .

ومراده عليه السلام نفى القنوط عن نفسه ، وبراءته منه على أبلغ وجه وأكمله ، أى ليس بى قنوط من رحمة ربى جل وعلا ، وإنما الذى قلته ، لبيان منافاة حالى وكبر سنى لإنجاب الذرية عادة ، وفى تعرضه عليه السلام لوصف الربوبية والرحمة مالايخفى من الجزالة .

ثم لم تكن هذه المحادثة بين الملائكة وإبراهيم خاصة ؛ فقد اشتركت فيها امرأته أيضاً إذ قالت للملائكة ما حكى الله عنها فى سورة هود : « يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ »[1] . ولم تُذكر محادثتهم مع امرأته هنا اكتفاء بذكرها فى سورة هود ، كما لم تذكر مع إبراهيم هناك اكتفاء بذكرها هنا . والكتاب العزيز ـ كما أسلفنا ـ يكمّل بعضه بعضا ، ويفسّر بعضه بعضا ، ويصدّق بعضه بعضا ، دون تناقض أو اختلاف . وصدق الله إذ يقول : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً »[2] .

(١) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) النساء : من الآية ٨٢

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فَمَا خَطْبُكُمْ) : أى فما شأنكم وأمركم الخطير؟ قال الراغب : والخطب ، الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب .

(قَدَّرْنَا) : قضينا أو حكمنا ، من التقدير بمعنى الحكم . (الْغَابِرِينَ) : الباقين ، يقال : غبر يغبُر غبورا : أى بقى . (يَمْتَرُونَ) : يَشُكُّون ، من المرية بمعنى الشك ، يقال : امترى فى الأمر وتمارى فيه ، أى شك .

التفسير

٥٧ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) :

لما طمأنت الملائكة إبراهيم بأنهم رسل الله وبشروه بالغلام العليم ، ذهب عنه الروع واستأنس بهم ، لكنه عليه السلام تفرس فيهم أنهم أُرسلوا لأمر آخر خطير غير البشارة ، إذ كان حديثهم موجزا يشعر بأن فى هذا الإيجاز كلاما مطويا ، ثم إنهم ذوو عدد والبشارة يكفى فيها واحد ، ولهذا خاطبهم بعنوان الرسالة وصدر خطابه بالفاء بعد أن كان خطابه

السابق مجرداً من ذلك ، كأنه قال : يبدولى أن لكم شأنا آخر خطيراً فما هو ؟ وقد كانت إجابتهم مصدقةً لفراسته :

٥٨ - (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ) :

يعنون قوم لوط عليه السلام ، فقد أفحشوا غاية الفحش بإتيانهم الرجال شهوة من دون النساء مع شركهم ، ولهذا وصفوا بالإجرام لأنه دأبهم ، وجئ بهم بطريق التنكير ذمًّا لهم واستهانةً بهم .

أى قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام جوابا عن سؤاله : إنا أرسلنا الله تبارك وتعالى إلى قوم مجرمين .

وتتمة الجواب فى سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » [1] .

إلا أنه أوجز هنا اكتفاء بما ذكر هناك ، كما تقدم مثل هذا وكما يأتى مراراً ، وهذا من دلائل حكمة الكتاب العزيز ، حيث لا يطنب فى مقام الإيجاز .

أى قال المرسلون لإبراهيم عليه السلام ، إن الله تعالى أرسلهم لإهلاك المجرمين من قوم لوط بعذاب الاستئصال ، وتنجية غير المجرمين منهم فهم مستثنون من القوم المهلكين . ولذلك قالوا :

٥٩ - (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) : والمراد من آل لوط من آمن به من قومه ولو كانوا من غير قرابته أو أصهاره ، وقد استثنوهم من أجل إيمانهم . ولما كانت امرأته كافرة ضالة ، استثنوها من آل لوط فقالوا :

٦٠ - (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) :

أى حكمنا وقضينا قضاءً لا مرد له : بأنها من الباقين فى العذاب مع الكفرة المهلكين ، من أجل كفرهم وجرمهم وكفرها معهم . وإنما أسند الملائكة التقدير والقضاء إلى أنفسهم

---

(١) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .

مع أن الله تعالى هو الذى قدّر وقضى لأنهم هم المباشرون لإنفاذ ما أمر الله بإنفاذه ، كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا وفعلنا وإن كان الآمر هو الملك .

وقوله سبحانه :

٦١ـ (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ) :

شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط ، مع تفصيل لما أجمل فى الاستثناء السابق؛ وذلك أن الملائكة لما بشروا إبراهيم بالغلام ، وعرفوه بما أرسلوا به ، ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط وهم فى صور شبان حسان الوجوه :

٦٢ـ (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ) :

أى لا أعرفكم، فمنْ أنتم ؟ ولأى أمر جئتم؟ وإنما قال ذلك لأنهم ليسوا من أهل الحضر ، ولا تبدو عليهم آثار السفر . ويحكى الله سبحانه إجابتهم للوط لكى يطمئنوه ، ويعرفوه بما جاءوا من أجله ، فيقول جل شأنه :

٦٣ـ (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ) :

أى ما جئناك بما يسوؤك ، بل جئناك بما فيه سرورك ونصرك على أعداء الله وأعدائك ، وهو إيقاع العذاب الذى كنت تتوعدهم بنزوله ، فيمترون أى يشكون فيه ويكذبونك . وهذا كما حكى الله عنهم فى شىء من التفصيل الذى تقدم فى سورة هود : « قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ »[1].ثم أكدوا بشارتهم بجملة من المؤكدات فقالوا :

٦٤ـ (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) :

أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لامجال للامتراء والشك فيه وهو عذابهم ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به ، أو فى كل كلام نقوله ؛ لأنه من عند الله عز وجل فيكون كالدليل على صدقهم فيما أخبروا به .

---

(١) من الآية : ٨١ .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾)

المفردات :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ): أى سر واذهب بأهلك ليلا ، من أسرى ، وقرئ « فاسر » بهمزة الوصل من سرى ، وهما بمعنى واحد . وقيل : أسرى فى السير أول الليل ، وسرى فى السير آخره. (بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : أى جزء منه ، أومن آخره . (أَدْبَارَهُمْ) : آثارهم .

(وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ) : أى أوحيناه إليه . وأصل القضاء الحكم . ولكنه ضمن معنى الإيحاء فتعدى تعديته بإلى . (دَابِرَ هَؤُلَاءِ): آخرهم . (مُصْبِحِينَ) : داخلين فى الصباح . وتأتى صيغة « أفعل » للدخول فى الشىء نحو أشرق ، وأنجد ، وأتهم[1] .

(وَلَا تُخْزُونِ) : ولاَ تُهينونى ، من الخزى ، وهو الذل والهوان ؛ أو لا تخجلونى ، من الخزاية ، وهى الحياءُ والخجل .

التفسير

٦٥ـ (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ...) الآية .

لما بشرت الملائكة لوطا عليه السلام بما أرسلهم الله به ، من إهلاك المجرمين ، وإنجائه وإنجاء أهله إلا امرأته ـ أمروه بما أمرالله به وهو أن يسرى بأهله فى جزء من الليل أو فى آخره .

(١) أى دخل فى الشروق والنجد وهو المكان المرتفع ، والتهامة وهى المكان المنخفض .

والفاء لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم . وهذا شروع فى ترتيب مبادىء النجاة كى تتم على ماقضى الله ودبّر .

والمعنى : اذهب بأهلك فى جزء من الليل أو فى آخره ، وكن فى أثرهم ، لتطلع على أحوالهم ، وتبعث الطمأنينة فيهم .

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ) :

أى ولا يلتفت منك ولا منهم أحد ، لئلا يرى ماوراءه من هول العذاب فلا يطيقه .

وقيل نُهوا عن الالتفات ، ليوطّنوا أنفسهم على المهاجرة أو المراد به النهى عن الابطاء فى السير فإن الملتفت قلما يخلو من أدنى وقفة .

ولم يذكر استثناء المرأة من الإسراء بأهله وعدم الالتفات ، اكتفاء بما ذكر فى آيات أخر .

(وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) :

أى واذهبوا إلى المكان الذى أمركم الله بالذهاب إليه ، وهو الشام – على ماروى عن ابن عباس والسُّدّى – وقيل الأُرْدُنّ ، وقيل مصر . وقيل موضع نجاة غير معيّن . والعلم عند الله تعالى . وأيّا كان الأمر فالجملة تأكيد للنهى عن الالتفات مع الإسراع بالسير قُدُماً امتثالا لأمره تعالى . وربما كان معهم من يوجههم إلى المكان الذى أمروا أن يذهبوا إليه . أو عرفه الله إياه والطريق الموصل إليه ، والله تعالى أعلم .

٦٦ – (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ) :

أى وأوحينا إلى لوط قضاء ذلك الأمر الذى حكمنا به على قومه حكماً لامردّ له ، وهو عذاب الاستئصال الذى فسره سبحانه بقوله :

« أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » وفى إبهام الأمر أولا وتفسيره ثانياً بما ذكر أكبر دلالة على فظاعته وشدة شناعته . والمعنى أنهم يُسْتَأْصلون عن آخرهم وهم داخلون فى وقت الصباح فلا يبقى منهم أحد . وقوله تعالى :

٦٧ - (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ) :

شروع فى بيان ماصدر من القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف. والمراد بالمدينة مدينة قوم لوط - وتسمى سدوم - وبأهلها أولئك القوم المجرمون .

والمعنى : وجاء أهل المدينةمنزل لوط عليه السلام مستبشرين فرحين ، وذلك أن الرسل لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم فى المدينة ؛وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك فجاءُوا إلىداره طمعا فى أولئك الأضياف الغرباء الحسان ،فلماخشى منهم على أضيافه ولم يكن يعلم أنهم رسل الله :

٦٨ - (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ) :

أى إن هؤلاء أضيافى فحق علىّ أن أبذل الوسع فى إكرامهم ، وحق عليكم أن تعينونى فى رعايتهم وحمايتهم ، فإن لم تفعلوا فلا أقل من أن تتركوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء حتى لايفهموا أنه ليس لى عندكم قدر ولا حرمة وتلك فضيحة لى ، ومعرة علىّ ، أو فلا تفضحونى بفضيحة ضيفى ؛ فإن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه !

ثم أكد طلب الكف عن الإساءة إليهم إذا لم يكونوا أهلا للإحسان فقال ماحكاه الله سبحانه عنه بقوله :

٦٩ - (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ) :

أى واتقوا الله فى تعرضكم لما يسوءنى ، فلا ترتكبوا فاحشتكم فى ضيفى فتوقعونى فى الذل والخزى أمام الأضياف ؛ فإن ذلك أجلب للعار والفضيحة عَلَىّ !

غير أن الخبث والانحراف عن الفضيلة كان متأصلا فيهم ، وكلمة العذاب حقت عليهم ومن أجل ذلك :

٧٠ - (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ) :

أى ألم نتقدم إليك بعدم ضيافة الشبان وحمايتهم ولم ننهك عن العالمين ، فلماذا خالفتنا وآويت هؤلاء الشبان ، وجعلتنا نحضر إليك ونطلبهم منك ، يعنون أننا قد نهيناك فعلا عنذلك . فكأنهم- أخزاهم الله - قالوا ما ذكرته من العار والفضيحة إنما جاء من

قبلك لا من قبلنا ، إذلولا تعرضك لما نتصدى له لما اعتراك مايسوءك ؛ وكانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء ، فكان عليه السلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا ينهونه جاهدين أن يضيف أحدًا أو يُجيره .

ولما رآهم عليه السلام مصرين على مُنكرِهم لا يقلعون عنه ، وأن نصحه ذهب هباء :

٧١ـ (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) :

يعني ببناته نساء قومه ، فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم ؛ أو يعني بناته حقيقة ، أي فتزوجوهن وقد كانوا يطلبونهن فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم . لا لعدم مشروعية الزواج بين المسلمات والكفار ؛ فإنه كان جائزًا كما هو مبين في المطولات .

وقوله : (إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) : أي إن كنتم راغبين في قضاء الشهوة فاقضوها بالطريق المشروع الذي أحله الله وهو الزواج ؛ فإنه أطهر لكم وأكرم . دون الطريق الخبيث المحرم ؛ أو إن كنتم فاعلين ما أشرت به عليكم من التزوج ، فهؤلاء بناتي فتزوجوا منهن .

وكان مجيء هؤلاء المجرمين إلى منزل لوط عليه السلام وما دار بينه وبينهم من نصحه لهم ومجادلتهم له ــ كان مجيئهم هذا قبل أن تُعلمه الملائكة بأنهم رسل ربه ، ويأمروه بأن يَسرِيَ بأهله . على ما تقدم بيانه في سورة هود في قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً »[1] إلى قوله عز سلطانه : «قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » .

وإنما أُخر ذكر مجيئهم هنا وما تبعه من المجادلة ، وقُدم عليه ذكر ماكان بينه وبين الرسل من المقاولة ــ على خلاف الترتيب الواقعي ــ للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه السلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقب ذكر بشارة إبراهيم عليه السلام بهما . ولم يراع في النظم الكريم الترتيب الواقعي ، ثقةً بمراعاته في مواقع أخر . والواو للعطف ، ولكنها لاتقتضي الترتيب ، ولاسيما إذا دل الدليل على خلافه .

---

(١) سورة هود من الآية ٧٧ – إلى الآية ٨١

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾)

المفردات :

(لَعَمْرُكَ) : أى لحياتك ، وهى صيغة قسم معناها أقسم بحياتك . والعَمر بالفتح هو العُمر بالضم ، ولكنه بالفتح اختص بالقسم للخفة وكثرة دورانه على الألسنة .

(سَكْرَتِهِمْ) : أى غفلتهم الشديدة التى أشبهت السُّكر فجعلتهم كالسكارى .. أو ضلالتهم كذلك .

(يَعْمَهُونَ) : يترددون ويتحيرون ، من العَمَه ، وهو فى البصيرة كالعمى فى البصر نعوذ بالله تعالى منه !

(الصَّيْحَةُ) : الصوت الشديد المزعج . والمراد به العذاب الذى أهلكهم الله به . كما نقله ابن المنذر عن ابن جريج ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة !

(مُشْرِقِينَ) : داخلين فى وقت شروق الشمس . (سِجِّيلٍ) : طين متحجر .

(لِلْمُتَوَسِّمِينَ) : للمتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بِسِمَتِهِ وعلامته .

(أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) : أصحاب الغَيْضَة وهى جماعة الشجر الكثيف الملتف . والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار المثمرة .

(لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) : لفى طريق بيّن واضح يؤتمّ به .

التفسير

٧٢ - (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) :

قيل : هذا قسم من الله تبارك وتعالى بحياة نبيه لوط عليه السلام : إن قومه لفى غفلة غامرة ، وضلالة منكرة ، جعلتهم كالسكارى يتحيرون ويترددون ، فكيف يستمعون للنصح ، أو يستجيبون لداعى الهدى وهم فى غوايتهم يتخبطون ؟ ! والمقصود من القسم تأكيد جهالتهم بعاقبة إعراضهم وغفلتهم ، وقيل هو قسم من الملائكة بأمر الله تعالى على تقدير القول ، أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » غافلون عما يصبِّحهم من عذاب قريب لا ريب فيه ، كما قال تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » [1]. وقال قوم إنه قسم بحياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبه قال ابن جرير وابن كثير وجمهور من المفسرين ، وعلى رأسهم ابن عباس ، حيث قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره [2]. وعلى هذا تكون الضمائر فى قوله : « إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » عائدة على قريش ، غير أن القسم بحياة لوط عليه السلام أنسب بسياق القصة ولا ضرورة تدعو إلى أن يكون القسم هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم . فالله جل شأنه يقسم بما شاء على ما شاء ، لحكم وأسرار ، والحكمة هنا تكريم لوط وبيان حسن منزلته عند ربه وإن لم يستجب له قومه ، فقد بذل فى هدايتهم غاية الجهد ، ولكننا نهينا أن نحلف بغير الله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، كما قدمنا فى تفسير قوله سبحانه :

---

(١) سورة هود من الآية ٨١

(٢) فى كتاب : التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم تأييد لهذا القول ورد لما سواه .

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ [١] » الآية . قال صاحب الفتح : قال العلماء : السر فى النهى عن الحلف بغير الله ، أن الحلف بالشىء يقتضى تعظيمه ، والعظمة فى الحقيقة إنما هى لله وحده . . . » .

ولما أفادت الآيات السابقة أن قوم لوط بلغوا من الإجرام حدًّا لا ينفع معه نصح ولا إنذار ذكر سبحانه عاقبة إجرامهم فقال :

٧٣ - (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ) : الفاء فى قوله تعالى : « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ » للإشارة إلى أن عذابهم بالصيحة جاء عقب إخبار لوط بأن قومه فى سكرتهم يعمهون .

والمعنى : فبعد ما أُخْبِرَ لوط بغفلة قومه عما أعده الله لهم من العقاب على فاحشتهم ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون وهم مشرقون - أى داخلون فى وقت شروق الشمس ، ويجمع بين قوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » وبين قوله هنا « مُشْرِقِينَ » بأن ابتداء عذابهم كان عند الصبح ، وانتهاءه كان عند الإشراق .

ثم بين سبحانه صفة العذاب المدمر الذى أحيطوا به فقال :

٧٤ - (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) :

أى فجعلنا عالِىَ مدينتهم ، أو عالى قراهم سافلها ، بأن دمرناها عليهم وقلبناها فوقهم ، وأرسلنا عليهم طينًا متحجرًا كالمطر المتتابع : أنزلناه قبل القلب أو فى أثنائه ليصيب الشذاذ المتفرقين ، فلا ينجو منهم جميعًا أحد . وفى سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ » [٢] . ولاريب أنها حجارة صنعت من طين لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب والطين إذا تحجر سُمِّى سِجِّيلا !

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٨٩

(٢) الآية : ٣٣

ثم دعا سبحانه إلى النظر والاعتبار بما أصاب هؤلاء المجرمين فقال :

٧٥ـ (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) :

أى إن فى ذَلكَ العذاب الذى أحاط بقوم لوط فدمَّرهم لعلامات بينةً على أخذ الله للمجرمين . يعرفها أهل الفطانة الذين يدركون الأُمور بسِماتها وعلاماتها . فيستدلون بها على حقائق الأَشياء ؛ ويعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر !

وفى الآية تنويه بالفِراسة والمتفرسين . وفى تفسير ابن كثير عن أَبى سعيد مرفوعًا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » رواه الترمذى وابن جرير . وأَصدق الناس فِراسةً أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان . قال ابن القيم : وكان الصدِّيق رضى الله عنه أَعظم الأُمة فِراسةً ، وبعده عمر ابن الخطاب رضى الله عنه [1] .

ثم بين سبحانه بيانا مؤكدًا أَن مدينة قوم لوط لاتزال توحى بالعبرة والعظة فقال :

٧٦ـ (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ) :

أى وإن هذه المدينة ، أَو القرى – يعنى آثارها – لفى طريق باق ثابت يسلكه الناس يومئذ فيرونها رأى العين ليعتبر بها أُولو الأَبصار والبصائر ، وفى سورة الصافات : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [2] » . والخطاب لأَهل مكة .

ثم حث المؤمنين على النظر مؤكدًا فقال :

٧٧ـ (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى إن فيما ذكر من قصة قوم لوط وما حل بهم لعلامةً عظيمة للمؤمنين بالله ورسوله فإنهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب وَجَعْلِ ديارهم خاويةً بلاقع ، إنما حل بهم لسوء صنيعهم ، وأَما غيرهم فهم غارقون فى غوايتهم فلا يفكرون فى الآيات ولا يعرفون سبيل

(١) انظر كتابه : « مدارج السالكين ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » .
(٢) الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨

الهدى . وإفراد لفظ (الآية) هنا وجمعها فيما سبق لأن المشار إليه هنا مجمل وهو كونها بسبيل مقيم ، والمشار إليه قبل ذلك مُفَصَّل حيث ذكرت قصة إهلاكهم وتدمير قراهم بسبب فاحشتهم ، ثم ساق سبحانه نبأ أصحاب الأيكة مجملا فقال :

٧٨ـ (وَإِن[١] كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ) :

أى وإن الشأن والخبر كان أصحاب الأيكة لظالمين لأنفسهم ، وأصحابُ الأيكة قومٌ أرسل إليهم شعيب ،والأيكة الشجرة الملتفة المتكاثفة ، وكانت عامة شجرهم المقل الذى عبر عنه بالأيكة . فنسبوا إليها . وكانت قريبة من مدين قرية شعيب . ولما ظلموا أنفسهم بالشرك ومختلف المظالم أرسل الله إليهم شعيبًا كما أرسله إلى قومه أهل مدين . ولذا قال سبحانه فى كل من السور الثلاث ، الأعراف ، وهود ، والعنكبوت. «وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعيبًا[٢] » الآيات . وقال فى سورة الشعراء : « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيبٌ أَلاَ تَتَّقُون ». إلى قوله عز من قائل : « فَكَذَّبُوهُ فَأَخذهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذابَ يَوْمٍ عظِيمٍ »[٣] . وجملة القول أن شعيبًا عليه السلام ، أُرسل إلى أُمتين عذبتا بعذابين . كما قال ابن جرير وغيره وهو ظاهر الكتاب العزيز .

ويبدو أنهم فاقوا أهل مدين فى الشرك والطغيان والاستهزاء والبهتان . ولذا كان عذابهم بيوم الظلة أشد من عذاب أهل مدين بالصيحة والرجفة وهى الزلزلة كما يعرب عنه قوله سبحانه : « فَأَخَذهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[٤] » حيث أكَّد سبحانه أنه كان عذاب يوم عظيم . روى غير واحد عن قتادة قال : ذُكر لنا أنه جل شأنه سلط عليهم

---

(١) أى وإنه « كان أصحاب الأيكة لظالمين » فأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن والأصل وإنه . أى وإن الحال والشأن كان أصحاب الأيكة الخ ، ولذا وقعت اللام الفارقة فى الجملة التى بعدها لكونها فى محل رفع خبر إن هذه ، وسميت هذه اللام (اللام الفارقة) لأنها فرقت بين إن المؤكدة التى تنصب الاسم وترفع الخبر بعد أن خففت نونها بالسكون وبين إن النافية المشبهة لها فى سكون النون .

(٢) الأعراف أول الآية : ٨٥ – وهود أول الآية : ٨٤ – والعنكبوت أول الآية : ٣٦

(٣) الشعراء الآيات من ١٧٦ – ١٨٩

(٤) الشعراء الآية (١٨٩)

الحر سبعة أيام لايظلهم منه ظل ولايمنعهم منه شىء. ثم بعث سبحانه عليهم سحابة فجعلوا يلتمسون الرَّوْح[1] منها فبعث عليهم منها نارًا فأكلتهم فهو عذاب يوم الظلة. وقوله سبحانه:

٧٩ - (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) :

مرتب على ظلمهم الذى تجاوز كل ظلم ، وإبهام نوع الانتقام هنا ثم تفسيره فى سورة الشعراء بعذاب يوم الظلة دليل على شدة هوله وعظمه . وقد قلنا مرارًا إن الكتاب العزيز يفسر بعضه بعضًا ، وضمير التثنية فى قوله تعالى: « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » قيل إنه يعود إلى الأيكة ومدين . لأنه لما كان رسولهما واحدًا هو شعيب عليه السلام كان ذكر أحدهما منبهًا على الآخر . والظاهر أنه يعود إلى مسكنى قوم لوط وأصحاب الأيكة - قال الآلوسى : وإلى ذلك ذهب الجمهور. أ . هـ . ويؤيده أنهما تقدما فى الذكر . وقد أضمير سابقًا إلى قرية قوم لوط بضمير المفرد فى قوله : « وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ » . وأضمر لها وللأيكة هنا بضمير المثنى حيث قال تعالى : « وإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » . ولعل هذا لتكرير العبرة والعظة بما يصيب القوم المجرمين. والإمام المبين هو الطريق البين الواضح الذى يأتم به ويهتدى الغادى والرائح .

---

(١) الروح : يعنى الراحة .

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾)

المفـردات :

(الْحِجْرِ) : واد بين المدينة المنورة والشام. (أَصْحَابُ الْحِجْرِ) : هم ثمود قوم صالح عليه السلام ،ويسمون عادًا الثانية . وأصل الحجر كل ما أحيط بالحجارة ومنه حجرُ الكعبة .

(الصَّيْحَةُ) : الصوت الشديد المزعج . والمراد منها الرجفة التى أهلكوا بها كما سيأتى بيانه .

(فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم) : فما دفع عنهم وما منعهم .

التفسير

٨٠ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) :

هذا شروع فى قصة أصحاب الحجر ، قوم صالح عليه السلام ، وهى من القصص التى لاتزال آثارها ناطقة بالعبرة والعظة لمن يمر بها . والحجر هو الوادى الذى كانوا يسكنونه . ولايزال معروفا بين المدينة النبوية والشام ، وقد كان يمر به ركب الحجاز إلى الشام ، ذاهبين وعائدين . وقصتهم هنا مجملة وفى مواطن أخرى ذكرت مفصلة . وإليك موجزا فى بيان قصتهم التى أجملتها هذه الآيات :

أرسل الله إليهم نبيهم صالحا فكذبوه فكانوا بتكذيبه مكذبين للرسل أجمعين ؛ لاتفاق كلمتهم على التوحيد والأصول التى لاتختلف باختلاف الأمم والأعصار . ولذلك حكى الله سبحانه تكذيبهم بقوله : « وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ » .

٨١ـ (وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

أى وأعلمناهم بحججنا البالغة الدالة على صدق صالح عليه السلام فيما دعاهم إليه من عبادة الله وحده ، والإيمان برسالته . وكانت الناقة إحدى آيات الله البينات : فى شربها ودرِّها على خلاف غيرها من النياق؛ ولذلك أضافها صالح إلى الله تعالى حين قال لقومه : « يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] . فكانوا عن هذه الآيات كلها معرضين ، بل مكذبين معاندين .

٨٢ـ (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ) :

أى ومكنَّاهم فى الأرض وجعلناهم أولى قوة ومنَعَة ، وحضارة ومهارة ، وحذْق بفنون البناء والعمارة ، حتى كانوا يتخذون من جبالها بيوتًا حصينة ، حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها ، ثم يبنون بها قصورهم ليعيشوا فيها آمنين عليها من الهدم ، وعلى أنفسهم من العدوان والسوء ؛ لقوة بنائها وبديع إحكامها ؛ أو آمنين من العذاب لحسبانهم أن الحصون التى بنوها تحميهم منه ـ وكانوا يتخذون من سهولها قصورًا عظيمة فى جنات وعيون . . . وقد ذكَّرهم بذلك نبيهم صالح عليه السلام فيما حكى الله عنه فى سورة الأعراف إذ قال : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »[2] وفى سورة الشعراء إذ قال : « أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَٰهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ »[3] . لكنهم طغوا وبغوا وجحدوا آيات الله ورسالاته : « وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[4] » .

٨٣ـ (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) :

وفى سورة هود : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[5] » .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ٧٣
(٢) الآية ٧٤ .
(٣) الآيات من ١٤٦ – ١٤٩
(٤) الأعراف من الآية : ٧٧ .
(٥) الآية : ٧٨ .

وفى سورة الأعراف : « فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ »[(١)].

والرجفة هى الزلزلة ، والصيحة من توابعها ، فإن الزلزلة تحدث تموجًا فى الهواء شديدًا يفضى إليها . وكانت صيحة هلاكهم فى صباح اليوم الرابع بعد تمتعهم ثلاثة أيام كما أوعدهم الله على لسان نبيهم صالح عليه السلام فى سورة هود : « فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ[(٢)] »

والفاء فى قوله تعالى :

٨٤- (فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

لترتيب عدم الإغناء والنفع ، على ما أصابهم حين نزل بهم قضاءُ الله الذى لا مرد له .

والمعنى : فما دفع عنهم وما منعهم من عذابه تعالى ما كانوا يكسبونه من نحت البيوت الوثيقة وجمع الأموال الوفيرة ، مع كثرة العدَد والعُدد ، بل خروا فى ديارهم هلكى خامدين كأن لم يكونوا بالأمس .

هذا ، وقد روى الشيخان وغيرُهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم . وروينا عنه أيضًا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجْر أرض ثمود فى غزوة تبوك ، أمرهم ألا يشربوا من مائها ولايستقُوا منها ، فقالوا : قد عَجَنَّا منها واستقينا ! فأمرهم أن يطرحوا العجين ويهريقُوا ذلك الماء . وفى رواية : فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يُهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يَعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة . قال العلماءُ : وقد علم النبى صلى الله عليه وسلم موضع هذه البئر من طريق الوحى .

---

(١) من الآية : ٦٥ .

(٢) من الآية : ٦٥ .

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾)

المفـردات :

(بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت الذى يحق لنا أن نخلق السموات والأرض عليه طبقا لمقتضى الحكمة والمصلحة .

(السَّاعَةَ) : أى القيامة ، وسميت بالساعة ، لأنها تفجؤهم فى ساعة لا يعلمونها .

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) : أى فأعرض عنهم الإعراض الجميل ، أو فاعف عنهم العفو الجميل الذى لا لوم فيه ولا تثريب . (الْمَثَانِى) : جمع مثْنَى من ثنى الشىء يَثْنِيه إذا أعاده ؛ أو جمع مُثنية من الثناء ، بحذف الزوائد ، لما فيها من الثناء على الله تعالى .

(لَا تَمُدَّنَّ عيْنَيْكَ) : لاتطمح بنظرك طموح راغب . وسيأتى بيان ذلك .

(أزْوَاجًا) : أى أصنافا ، جمع زوج أى صنف .

(واخْفِضْ جَنَاحَكَ) : ألِن جانبك وتواضع ، والجناحان من الإنسان جانباه .

التفسير

٨٥ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ . . . .) الآية . . .

لما قص الله تبارك وتعالى من أنباء المكذبين لرسلهم ما فيه عبرة وتذكرة - نبه بذكر هذه الآية الكريمة على حكمته البالغة فى إهلاكهم ؛ حيث بين أنه ما خلق السموات والأرض

وما بينهما ذلك الخلق البديع المحكم ، إلا بالحق وهو أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا ؛ فلما جحدوا آياته ، وأشركوا به ، وكذبوا رسله ، وعثوا فى الأرض فسادا ـ قضت عدالته وحكمته بأن يهلكهم ويهلك أمثالهم ، دفعاً لفسادهم ، وتطهيراً للأرض من شرورهم ، وإرشاداً لمن بقى إلى الصلاح والإصلاح . حذراً من أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

هذا جزاؤهم فى الدنيا ، وقد أشارت إليه الجملة الأولى من الآية الحكيمة ، وأما جزاؤهم فى الآخرة فموعدهم فيه الساعة ؛ وإليه تشير الجملة الثانية من الآية ، وهى قوله :

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ) : لا ريب فيها ؛ فينتقم الله لرسله ، جزاء ما كُذِّبوا وأوذوا .

هذا ، وفى تلك القصص وما ختمت به تسلية كريمة للنبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه ، إذا سمع من ربه أن الأُمم السابقة كانوا يعاملون أنبياءهم هذه المعاملة القاسية ، هان عليه تحمل سفاهة قومه وأذاهم ، وسهل عليه أن يعفوَ عنهم عفواً كريما لا لوم فيه ولا تثريب ، وهذا هو الصفح الجميل الذى أمره الله به إذ قال :

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) : كما روى عن علي وابن عباس رضى الله عنهم فى تفسير الصفح الجميل ، وفى أمره صلى الله عليه وسلم بالصفح الجميل إشارة كريمة إلى تركهم لله تعالى ، وأن يتذرع بالصبر الجميل ، حتى يأتى وعد الله وما قضاه فى شأنهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يصفح عنهم فلا يحمل نفسه مالا تطيق من الضيق بكفرهم ، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات .

ثم قرر سبحانه هذا المعنى وزاده توكيداً فقال :

٨٦ـ (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) :

أى إن الله الذى رباك بنعمه ، وتولاك بفضله وكرمه هو الخلاق لك ولهم ، العليم بأحوالك وأحوالهم ، وبما جرى بينك وبينهم ، فخليق بك أن تكل الأُمور إليه ، فهو الحكم العدل الذى يجازيك على حسناتك ويجازيهم على سيئاتهم ، وقد علمت أن الصفح الجميل

أولى بك إلى أن يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين . ثم امتن سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم بالمنة العظمى ، وهى إنزال القرآن عليه فقال :

٨٧ـ (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) :

أى ولقد أنعمنا عليك إذ أنزلنا إليك فاتحة الكتاب ، وهى سبع آيات تُثَنَّى وتكرر فى الصلوات الخمس وغيرها ويُثْنَى بها على الله عز وجل ؛ وهى القرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر واعتبارها القرآن الكريم ؛ لمزيد فضلها ورفيع مكانتها ، ولا شتمالها على مقاصد القرآن كله .

وقد روى البخارى[1] عن أبى سعيد بن المعلَّى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له وهما فى المسجد : لأُعَلِّمَنَّك سورة هى أعظم السور فى القرآن . . . الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أُوتيته .

وروى البخارى أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم » .

فكل من هذين الحديثين الصحيحين نص صريح فى أن فاتحة الكتاب هى السبع المثانى وأنها القرآن العظيم . والقرآن كما يطلق على الكتاب العزيز كله يطلق على بعضه .

وذكر المفسرون جملة أقوال أخرى فى المراد بالسبع المثانى ؛ أصحها وأقواها ما رُوى عن جمع من الصحابة والتابعين ؛ وفى مقدمتهم ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير رضى الله عنهم ؛ إذ قالوا ، إنها السبع الطُّول[2] أطول سور القرآن الكريم كله : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والسابعة الأنفال وبراءة ، فهما عندهم سورة واحدة ولذا لم يفصل بينهما بالبسملة .

---

(١) فى أول كتاب التفسير : باب ما جاء فى فاتحة الكتاب . . . ثم فى باب قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » من تفسير سورة الحجر .

(٢) جمع طولى مؤنث أطول .

وذكر ابن كثير أن النص الصحيح على أن فاتحة الكتاب هى السبع المثانى ، لايمنع من وصف السبع الطُّول بما اتصفت به الفاتحة . بل لايمنع من وصف القرآن كله، بأنه مثانٍ ، وقد قال تعالى : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ » [1] .

ولما كان متاع الدنيا وإن عظم ، شيئا ضئيلا حقيرا بالقياس إلى ما أنعم الله به على نبيه من نعمة القرآن الكريم - نهاه أن يطمح ببصره طموح راغب فى هذا المتاع فقال :

٨٨ - (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ . . .) الآية .

أى لاترغب فى متاع الدنيا وزخرفها مما متعنا به أصنافا من الكفرة المشركين وأهل الكتاب ؛ واستعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » [2] .

وكان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن كل من بعثه الله إليهم ، ويشق عليه - لمزيد شفقته - بقاءُ الكفرة على كفرهم فقال الله له رحمة به :

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) كقوله : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » [3] أى لاتحزن ولاتتحسر إذا لم يؤمنوا فما عليك إلا البلاغ وقد بلغت ، فلا تبال بهم بعد ذلك .

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) : أى تواضع لمن اتبعك من المؤمنين وارفق بهم واصبر نفسك معهم . فإنهم أولى بك من أولئك الجاحدين ، وإنك بالمؤمنين رءوف رحيم .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٢٣

(٢) سورة طه الآية : ١٣١

(٣) سورة فاطر من الآية : ٨

(وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾)

المفـردات :

(النَّذِيرُ الْمُبِينُ) : المنذر الموضح لما ينذر الناس به ويهديهم إليه .

(عِضِينَ) : أى أعضاء وأجزاء متفرقة كل فرقة عِضة ، يقال عضَّى الشَّىء تعضية إذا فرقه وجزَّأه .

(فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) : أى فاجهر بما تؤمر به وأظهره ، يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو افرُق بين الحق والباطل ؛ من الصدع بمعنى الشق .

(إنَّا كَفَيْنَاك الْمُسْتَهْزِئِينَ) : أى تولينا إهلاك المستهزئين يقال :كَفَيْتَ فلانًا المؤنة إذا توليتها ولم تحوجه إليها

التفسير

٨٩ـ (وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) :

امْتنَّ الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى الآيتين السابقتين بأنه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم وأوصاه بوصايا ثلاث :

« أولاها » : أن لاتطمح نفسه إلى مثل مَا أُوتيه أصناف من الكفار من المال والجاه فإن القرآن أعظم من هذا كله ، فهو عز الدنيا والآخرة « والوصية الثانية » أن لايحزن عليهم بسبب انصرافهم عن الهدى الذى جاءهم به « والوصية الثالثة » أن يتواضع للمؤمنين ويخفض جناحه لهم ليشتد حبهم له ، واستمساكهم بدعوته والتفافهم حوله ، فهم خير له من هؤلاء المترفين المستكبرين ، وقد مرَّ الكلام على هاتين الآيتين وجاءت هذه الآية مشتملة على وصية رابعة ، وهى أن يقول لجميع الناس إنه هو النذير الموضح لما أنزله الله عليه من أجلهم ، من السبع المثانى والقرآن العظيم ، وفى جملة ما يوضحه لهم ما أنذرهم فيه من العقاب على مخالفتهم أوامر ربهم ، حيث يبين دواعيه وبراهينه ، وإنما اقتصر على الإنذار مع أن الله أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا ، لأن المؤمنين كانوا يومئذ قلة والكافرين كثرة ، ولأن المقام مقام تحذير وتخويف ، وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العُريان ، فالنجاءَ النجاءَ ، فأطاعه طائفة من قومه فأَدْلَجُوا وانطلقوا عَلَى مَهَلِهِمْ فنجوا ، وكذَّبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثلُ من أطاعنى واتَّبع ما جئت به ، ومثلُ من عصانى وكذَّب ماجئت به من الحق » .

٩٠ ـ ٩٣ ـ (كما أنزلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)) .

البيان

اختلف العلماء فى تفسير المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين على سبعة أقوال نختار منها قولين : (أحدهما) ما قاله مقاتل والفراء ، من أنهم ستة عشر رجلا ، أرسلهم الوليد ابن المغيرة أيام موسم الحج فاقتسموا طرق مكة ومداخلها وفجاجها ، يقولون لمن سلكوها : لاتغتروا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة فإنه مجنون ، وربما قالوا : ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن ، وسُمُّوا مقتسمين لأنهم اقتسموا مداخل مكة فأماتهم الله شر ميتة ، وكانوا نصَّبوا المغيرة بن شعبة حكماً على باب المسجد الحرام ، فإذا سألوه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وافق على فرية هؤلاء المقتسمين ، وصدقهم فيما يفترونه ـ هكذا حكى القرطبى رأى مقاتل والفراء .

(والقول الثانى) لِقَتَادَة وخلاصته أنهم قوم من كفار مكة ، اقتسموا كتاب الله فزعموا بعضه شعرًا ، وبعضه سحرًا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين فهؤلاء هم المقتسمون جعلوا القرآن عضين ، أى جعلوه أجزاء مختلفة وفرقًا متباينة ، لكل جزء منه اسم من الأسماء التى مرّ بيانها .

وإنما اخترنا هذين القولين لأن السورة مكية ، وما جاء فيهما حدث من مشركى مكة .

أما ما قيل من أن المقتسمين هم أهل الكتاب ، اقتسموا القرآن فيما بينهم ، فآمنوا ببعضه وهو ما وافق التوراة والإنجيل . وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما ، أو اقتسموه استهزاء . فقال بعضهم لبعض : هذه السورة لى وهذه السورة لك ، أو اقتسموا كتبهم ففرقوها وبدّدوها ـ أما هذه الأقوال الثلاثة فغير مقبولة لأن السورة مكية . ولم يحدث من النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة احتكاك بأهل الكتاب . ولا تبليغ القرآن لهم حتى يقولوا فيه ذلك ، كما أنه لم يسبق لأهل الكتاب فى السورة كلها ذكر مطلقًا حتى يتوهم رد المقتسمين إليهم وتفسيرهم بهم .

وأما ما قيل من أن المراد بهم قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال سبحانه فى سورة النمل حكاية عنهم : « قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ

لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ـ ٤٩ ـ » ـ أما هذا القول ـ فهو بعيد أيضًا لأنهم وإن ذكروا فى هذه السورة بعنوان أصحاب الحجر فى الآية رقم ٨٠ لكنهم لم يجعلوا القرآن عضين فإنهم لا علم لهم به لتقدمهم على نزوله فضلا عن أن المقام لايسمح بإرادتهم . وكيف تتصل هذه الآية وما بعدها بقصتهم وبينهما تسع آيات ، وفى أفصح الكلام ، إن هذا لجد بعيد .

ماترتبط به هذه الآيات ومعناها

قد مرَّ بك أيها القارىء الكريم أننا اخترنا الرأيين الأولين فى تفسير معنى المقتسمين لاتفاقهما على أنهم من أهل مكة . وهذا يناسب كون السورة مكية وترتبط تلك الآيات الأربع بقوله تعالى قبلها مباشرة : « وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » والمعنى على هذا :

وقل أيها الرسول للناس : إنى أنا المنذر لمن خالف ربه وكفر به وعصاه ، المبين لهم ما أنذروه كالإنذار الذى نُنْزِلُهُ بشأن المقتسمين من أهل مكة الذين جعلوا القرآن أجزاء وفرقوه أوصافًا . فتارة يسمونه سحرًا وأخرى يزعمونه شعرًا وحينا يدَّعون أنه كهانة . وأخرى يفترون أنه أساطير الأولين . وهذا الإنذار الذى ننزله بشأنهم ونبينه لهم هو قولنا لك تسلية . ولهم وعيدًا وتهديدًا : فوحق ربك الذى أحاطك بحمايته ورباك بنعمته وشرفك برسالته لنسألنهم أجمعين عما كانوا فى دنياهم يعملون من كفر وتكذيب وإعراض وافتراء « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »[1] . فيحاسبهم أدق حساب ويعاقبهم أشد عقاب . فليس الأمر كما يزعمون إذ يقولون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[2] . وعبر بالماضى بقوله : « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » مع أنه تعالى لم ينزل فى الماضى بشأنهم قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وإنما أنزله وقتما أمر النبى بقوله له : « وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » الآيات . ـ وعبر بالماضى فى قوله : « أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » ـ لأن المحقق إنزاله فى المستقبل فى حكم الذى نزل فعلا . ولأن نزوله سابق فى علم الله وقضائه .

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٤٢) (٢) سورة الأنعام الآية (٢٩)

ويجوز أن يراد مما أنزله الله على المقتسمين ما سبق نزوله من الإنذار للمعرضين عن القرآن المتقولين عليه كقوله تعالى فى حق الوليد بن المغيرة : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا » وقوله : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » وقوله : « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَاتُبقِى وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »[1] . وذلك عقاب له على قوله فى القرآن : « إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » . وكقوله فى سورة فصلت : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »[2] . وعلى هذا يكون قوله سبحانه : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وعيدًا آخر غير ماسبق نزوله بشأنهم .

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » عائدا على الناس جميعًا ، وليس خاصًا بهؤلاء المقتسمين ، أى وحق ربك يا محمد لنسألن الناس جميعًا - مؤمنهم وكافرهم عما كانوا يعملون فى دنياهم « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »[3] .

وليس سؤاله سبحانه سؤال استفهام واستعلام وإنما هو سؤال تقريع وتوبيخ أو تقرير ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يسألهم الله تعالى : هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم وإنما يقول : لم عملتم كذا وكذا؟ وروى الترمذىّ بإسناد حسن صحيح عن أبى برزة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لَاتَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمُرِه فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنفَقَهُ ، وَعَن جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ » ؟

ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى فى سورة الرحمن : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ »[4] .

وكذا فى سورة المرسلات : « هَذَا يَوْمُ لَايَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »[5] .

---

(١) سورة المدثر الآية من ١١ - ٣٠ (٢) فصلت الآية ١٣
(٣) سورة النجم من الآية ٣١ (٤) الآية ٣٩
(٥) الآيتان ٣٥ ، ٣٦

لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف فيسألون فى بعض المواقف ولا يسألون فى بعضها .

وفى التعرض لوصف الربوبية مضافًا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، من تسليته واللطف به ، مالا يحتاج إلى بيان .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله تعالى سرًّا حتى نزلت هذه الآية :

٩٤ـ (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) :

أى اجهر بما يأمرك الله به ، وأعلِنْ رسالته التى أرسلك الله بها إلى الناس كافّةً ، ولا تبال بالمشركين وأذاهم فالله حافظك وناصرك وعاصمك ، كما قال تعالى : « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[1] .

ولما كان المستهزئون بالدعوة هم أكبر المعوِّقين لها والصادِّين عن سبيل الله ــ وعده الله سبحانه أن يهلكهم ويكفيه شرهم فقال :

٩٥ـ (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) :

الذين يستهزئون بك وبالقرآن !

والمستهزئون نفر من رؤساء كفار قريش ؛ اختُلف فى عدّتهم وفى أسمائهم ، والمشهور أنهم خمسة ، وكانوا يبالغون فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستهزاء به . وبالقرآن ، وهم : الوليد بن المغيرة المخزومى وهو رأسهم ، والعاصى بن وائل السَّهمىّ ، والأسود بن الطَّيب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس ، وقيل غير ذلك . .

غير أن المعلوم فى شأنهم أنهم كانوا طائفة ذات قوة وشوكة ، لأن أمثالهم هم الذين يجترئون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علو منصبه وعظيم قدره فى عشيرته . وقد وصف الله المستهزئين ، وأكد وعده لرسوله بأنه سيكفيه شرهم فقال سبحانه :

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٦٧

٩٦ - (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُون) :

أى أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بك يامحمد بل اجترءوا على عظيمة العظائم وكبيرة الكبائر : ألا وهى الإشراك بالله عز وجل ، ولهذا كله « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ما يحل بهم فى الدنيا من الإهلاك والإبادة ، وفى الآخرة من العذاب العظيم .

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(يَضِيقُ صَدْرُكَ) : أى ينقبض ويُحرج .

(مِنَ السَّاجِدِينَ) : أى من المصلين ، وإطلاق الساجدين عليهم ؛ لأن السجود فى الصلاة أظهر ما فيها من أمارات الخضوع والاستسلام والذلة لله تعالى .

(الْيَقِينُ) : المراد به هنا الموت ؛ وعبر عنه باليقين لتحققه .

التفسير

بعد أن جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة امتثالًا لأمر ربه ، اشتد إيذاء قريش له ولمن آمن به ، حتى ضاق صدره وعظم همه ، بما كانوا يقولون من كلمات الشرك والسخرية فأنزل الله عليه :

٩٧ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) الآيات .

أى وإنا لنعلم ما يصيبك من انقباض صدرك ، وعظم همك وألمك ، بسبب ما يقول المشركون فيك وفى القرآن من كلمات الشرك والاستهزاء :

٩٨ - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) :

أى فافزع إلى ربك فيما يصيبك من ضيق الصدر وانقباضه ، ونزِّهه عما يقول المشركون،

حامدًا له سبحانه على أن هداك إلى الحق وشرح صدرك به . وكن من المصلين الخاشعين ، يكشفْ همك وغمك ، ويُذهِب الضيق الذى تجده فى صدرك .

ولأن السجود فى الصلاة أظهر ما فيها من الخضوع ، وأفضل أجزائها من الخشوع - عبر الله به عنها ،وأمره به بصيغة تدل على الدوام والاهتمام بالصلاة وبالسجود معًا . وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة[1] .وقد روى عن مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .

وفى ختام السورة الكريمة بقوله تباركت أسماؤه :

٩٩ - (واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) :

أمر إلٰهى كريم للنبى صلى الله عليه وسلم بدوام العبادة لربه والدعوة إليه حتى يأتيه اليقين ، أى الأمر الموقن به وهو الموت .

أى دم على ما أنت عليه من الصلاة والعبادة لربك ما دمت حيا .

والآية دليل على وجوب العبادة - وعمادها الصلاة - على كل مكلف ما دام عقله ثابتًا . ولو كان مريضًا كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره عن عمران بن حُصينٍ رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلِّ قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنبك » .

والآية الكريمة دليل كذلك على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ! وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات ، إلى الممات . وإنما المراد باليقين هنا الموت كما قدمناه . ولله الحمد والمنّة ، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فإنه جواد كريم .

---

(١) هذا حديث مشهور ذكره ابن جرير وغيره ، وقال ابن الأثير فى النهاية : كان إذا حزبه أمر صلى . أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . اهـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النحل

المقدمة

السورة مكية إلَّا الآيات الثلاث الأَخيرة على أَرجح الآراءِ ، وهى تتناول النعم العديدة المتوالية من الله سبحانه على خلقه ، ولهذا سميت أَيضًا سورة « النِّعم » .

وإن كثيرًا من البشر يقابلون هذه النعم بالجحود والكفران كما قال تعالى : « يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » النحل (٨٣).وأهم مشتملاتها :

١ ـ أنها أَشارت إلى أن عذاب الله واقع ماله من دافع ، على من يستحقونه من الطغاة العُتاة ، وإن أَمهلهم الله حتىٰ حين فليس معنى ذلك إفلاتُهم من عقابه الأَليم إذا هُمْ أصروا على الكفر والعصيان ، فإن الله ليملى للظالم حتى إذا أَخذه لم يُفْلِته .

ومن لطفه سبحانه بعباده أنه ينذرهم قبل معالجتهم بالعذاب عن طريق تنزيل الملائكة بالوحى السماوى على من يصطفيهم من رسله ليبلغوه إلى أَقوامهم :«لِئَلَّا يكُون لِلنَّاس عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »[1] .

٢ ـ أنها بينت أن الله سبحانه خلق السموات والأَرض من العدم بالحق والحكمة ، وخلق الإنسان من نطفة من ماءٍ مهين ثم سوّاه إنسانًا سويًّا ، فإذا هو مجادل مكابر مُقْبِلٌ على الخطإِ بعيدٌ عن الصواب ، ومع هذا فالله سبحانه يغمره بإحسانه وكرمه ، فقد خلق له الأَنعام وسخَّرها له ينتفع بأَصوافها وأَوبارها وأَشعارها ويأْكل لحومها وما تدره من الأَلبان ، وهيَّأَ له استخدام الدواب يمتطيها ويحمل عليها أَثقاله إلى مكان بعيد ، ومع أن الله منَّ عليه بذلك هداه إلى السبيل السوىِّ المستقيم ليعبد الله حق عبادته ، فبعث إليه رسله ، وبين له آياته .

(١) سورة النساء ـ الآية : ١١٥

٣ ـ وأن من رحمة الله بخلقه أنه أسقط لهم المطر يستغلونه فى الشُّرْب وإعداد الطعام وسقى المواشى وزراعة الأرض لتخرج أنواع الثمار والفواكه والبقول وغيرها ، ومن نعم الله أيضًا على عباده أنه مهَّد لهم العيش على سطح الأرض ، ونظم دورانها حول محورها بصورة تستتبع تعاقب الليل والنهار وهيأ لهم الانتفاع بضوء الشمس ونور القمر ، والاهتداء فى ظلمات الليل بالنجوم أثناء الحِلِّ والترحال ، كما سخر لهم الانتفاع بالبحار والمحيطات وما تضمه من خيرات ، وما تهيئه لهم من سهولة الانتقال بالسُّفن بين شتى البلاد والأقطار ، وتظهر آثار حكمته سبحانه فى أنه ثبت الأرض فى دورانها بالجبال الشامخة حتى لا تميد بما تحمله من العوالم العديدة .

٤ ـ وأن الله سبحانه هو الذى خلق الخلق بحكمته وقدرته وغمرهم بإحسانه وفضله فهو وحده الجدير بالعبادة فكيف يشركون به أحدًا من خلقه ، مع أن نعم الله عليهم لا تُحْصى ولا تعد ، وهو يعلم مايسرون ومايعلنون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب كما جازى الأمم السابقة لهم فى الدنيا والآخرة ، فى حين أن ما يعبدونهم من دونه لا يستحقون شيئًا من العبادة لفقدانهم أهليتها ، فهم لا يملكون لأنفسهم ولا لسواهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

٥ ـ وأن الموت نهاية كل إنسان والناس إزاءه فريقان : فريقٌ تتوفاه ملائكة العذاب ومصيره إلى جهنم وبئس المصير ، وفريق مؤمن تتوفاه ملائكة الرحمة فتبشره بالثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة ؛ ولقد بعث الله الرسل وأنزل معهم الكتب فاستجاب لهم فريق وكفر بهم فريق ، وسينال كلٌّ جزاءه بقدر عمله ، والذين هاجروا فى سبيل الله سيشملهم الله برحمته ورضوانه فى الدنيا « وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

٦ ـ وبينت السورة أنه تعالى لم يرسل قبل محمد ملائكة حتى يحتجوا بهذا ، وإنما أرسل رجالًا أوحى إليهم برسالاته ، فهل أمن الكفار أن يخسف الله بهم الأرض جزاء كفرهم وعنادهم أو يصيبهم بعذاب مباغت وهم آمنون ، أفلا ينظرون إلى الكائنات المنقادة لمشيئته الخاضعة لإرادته سواءً فى الأرض أم فى السماء ، فهو إله واحد لا شريك له ، تظهر آثار قدرته وحكمته وإحسانه على خلقه ، وإن كان بعضهم يقابل الإحسان بالإساءة والجحود ، ويزعم

أن الملائكة بناتُ الله ، ويضيق بإنجاب البنات ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيبقيهن مع احتمال الذل والهوان أم يدفنهن أحياءً فى التراب - ولو يؤاخذ الله الناس بذنوبهم لأزال كل ما يدب على سطح الأرض من الكائنات الحيةولكنه يؤخرهم إلى أجل محدود لا يتجاوزونه بأى حال .

٧- وبينت السورة أنه تعالى أرسل الرسل إلى الأمم السابقة فكذبوهم فأصابهم ما يستحقونه من العذاب ، وأنه تعالى أنزل على رسوله الكتاب إرشادًا وتوضيحًا وهدى ورحمة ، وكما أنزل الله الهداية الروحية لإحياء النفوس أنزل سبحانه الماءلإحياء الأرض بعد موتها ، وسخر سبحانه الأنعام لتمنحهم من بطونها اللبن السائغ العذب ، وأنبت لهم من الأرض ثمرات النخيل والأعناب يتخذون من ثمراتها شرابا حلوا وأكلًا شهيًّا ، وسخر النحل وهداها لتتخذ من الجبال ومن الشجر والعرائش بيوتا لها ولتتناول من الثمار غذاءً تحيله إلى عسل شهىٍّ فيه غذاءٌ وشفاءٌ .

٨- وبينت أن الله خلقنا ثم قدر علينا الموت ، وقد يمهل بعضنا حتى يبلغ أرذل العُمُر فلا يعلم شيئًا ؛ والله اختبرنا بتفضيل بعضنا على بعض فى الرزق ، وخلق لنا أزواجًا من جنسنا حتى نأنس بهنّ ونَسْكُن إليهن ، ومنحنا منهنّ أبناءً وحفدة ورزقنا من طيبات الحياة فكيف نقابل إحسانه بالكفر ، ونؤمن بالباطل والضلال ونعبد مِنْ دونه من لا يملك أن يرزقنا ولا يستطيع الرزق إن أراد .

٩- وأنه لايستوى العجزة والقادرون ولا الأغبياء والأذكياء ؛ وللجميع نهاية يوم القيامة الذى يباغت به الجميع مباغتة تقع كطرفة العين ؛ ومن آيات الله التى ينبغى مراعاتها وشكرها أنه سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا . ونحن لانعلم شيئًا ، ثم منحنا نعمة السمع والبصر والعقل المفكر لكى نعبده ونشكره حق شكره ، وأتاح لنا رؤية الطير المحلِّقة فى أجواز الهواء ضد الجاذبية الأرضية ، ومايحفظها فى تحليقها إلا الله الحكيم القدير العليم .

١٠- ومن نعم الله العديدة علينا أنه هدانا لاتخاذ البيوت المستقرة ، كما هدانا لأن نتخذ البيوت المتنقلة من الخيام المصنوعة من جلود الأنعام . وهيأ لنا أن نتخذ من أصوافها

وأوبارها وأشعارها أثاثاً لبيوتنا وملابس تقينا من لفح الحر ولذع البرد . وهدانا إلى اتخاذ الدروع التى تحمينا فى ساحة القتال ؛ ولكن كثيرين منَّا يعرفون هذه النعم وهم لها جاحدون .

١١ – وأن الله سبحانه أمر عباده بمراعاة العدل والإحسان وصلة الأرحام ، ونهاهم عن ارتكاب الآثام ، كما أمرهم سبحانه بالوفاء بالعهود المُبْرمة والأيمان المؤكدة ، وألَّا ينقضوا ماأبرموه وألَّا يتخذوا أيمانهم وسيلة للخداع والتمويه وألَّا يستبدلوا ماعاهدوا عليه الله بعرض زائل ولا ثمن قليل ، فإنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى وسيجزى الله عبادهُ المتقين أجزل الثواب .

١٢ – وأن على المؤمنين حين يتلون كتاب الله أن يستعيذوا به من وسوسة الشيطان حتى لايُفْسِد عليهم تلاوتهم أو يصرفهم عن تدبر آيات الله البينات ؛ فإنه لا سلطان للشيطان على المؤمنين المتوكلين على الله ، وإنما سلطانه على الموالين له المنصرفين عن عبادة الله .

١٣ – وأنه إذا أنزل الله آية بدلا من آية كذَّب المشركون رسولهم ، وكان عليهم أن يعلموا أن الرسول لايفترى على الله الكذب ، وأنه تلقى وحى الله عن طريق الروح الأمين تثبيتاً لقلوب المؤمنين وهدى وبشرى للمسلمين ؛ وأن المشركين يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن عن طريق غلام أعجمى بمكة ، وفاتهم أن هذا الغلام أعجمى لا يكاد يبين وأن القرآن الكريم عربى مبين ، وافتراءُ الكذب على الله من شيمة الكذابين الكافرين .

١٤ – وأن من كفر بالله بعد الإيمان فجزاؤه العذاب الأليم ، إلا من أُكْرِه إكراهاً شديداً على النطق بالكفر وقلبُه ممتلىءٌ بالإيمان .

١٥ – وأن النعم تزول بجحودها ، وقد ضرب لذلك مثلا بقرية سعدت بأنعم الله فعاشتْ آمنة مطمئنة فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع والحاجة والهوان بسبب كفرها وإنكارها لأنعم الله .

١٦ – ثم وجه الله عباده إلى أن يطْعموا الحلال وأن يبتعدوا عن الحرام ، ونهاهم عن أن يبتدعوا من التحريم والتحليل مالم يأْذن به الله ، ونبههم إلى أن من وقع فى الآثام وبادر بالتوبة فإن الله من بعد ذلك لغفور رحيم .

١٧ – ثم أمر الله رسوله أن يلتزم فى دعوته بالرفق والأناة والموعظة الحسنة وأن يجادل الكُفَّار بالحسنى ، وإذا آذاه المشركون فإنَّ له أن يقابل إيذاءهم بمثله وله أن يصبر فإن الصبرَ خير عاقبةً وأجدى مآلًا فإن الله مع الصابرين المحسنين .

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾)

التفسير

١ ـ (أَتىَ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ): نزل قضاءُ الله وحكمه بنصر المؤمنين وهزيمة الكفار إذا أصروا على الكفر والعصيان ؛ والمقصود أنه سيأتى قضاءُ الله فى المستقبل ، والتعبير عن المستقبل بالماضى لأنَّ وقوعه حتمى مؤكد فى الوقت الذى حدَّده الله لوقوعه فكأنَّه وقع فعلا ، وشبيه هذا قوله تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْقَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدنَا رَبُّنَاحَقًّا فَهَلْ وَجَدْ تُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ »[1] . فإن المناداة لاتقع إلَّايوم القيامة ،والمراد بأَمر الله هنا ـ كما قال ابن جريج ـ ماوعد الله رسوله من النصر على الأَعداء . والانتقام منهم بالقتل والسبى والاستيلاء على الديار اهـ. ومن ذلك قوله تعالى : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »[2] .

وإذا كان قضاءُ الله نافذا لا محالة فى الوقت الذى قدره الله سبحانه فلا داعى لأَن تستعجلوا وقوعه أَيها المشركون ، وقد كانوا يتحدَّون الرسول صلى الله عليه وسلم ويستعجلون وقوع العذاب الذى أَنذرهم به .

(١) الأعراف ـ ٤٤

(٢) الروم ـ ٤٧

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : تنزيها لله سبحانه وتساميا عن أن يكون له شريك أو نظير يماثله فى أمره كله : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[1] » .

(يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾)

المفـردات :

(بِالرُّوحِ) : المقصود بالروح هنا القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا[2] » . أو القرآن والسنة معا لأنهما وحىٌ سماوى وإن افترقا بأن لفظ القرآن ومعناه أُنزلا من عند الله ، أما السنة فمعنا ها هو الذى أُنزل من عنده تعالى ، وأما لفظها فهو من تعبير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . (مِنْ أَمْرِهِ) : أى أن هذا الروح – أى القرآن – ناشىءٌ من أمره وصادر عنه ، ويصح أن تكون (من) سببية أى بسبب أمره . (أَنْذِرُوا) : خوِّفوا وحذِّروا .

التفسير

٢ – (يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ) :

أى أنه سبحانه اقتضت حكمته قبل أن يعاقب خلقه أن يُرْشِدهمُ إلى الصواب ويخوفهم العقاب فينزل ملائكته بالوحى السماوى حال كون هذا الوحى ناشئا ومبتدئا من أمره وحده – ينزله – على من يصطفيهم من خلقه ومهمتهم ما بينه الله فى قوله : « أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » أى خوِّفوا الناس من مخالفة أمرى . وبينوا لهم أنه لا إله إلا الله وأن عليهم أن يعبدوه وحده وأن يحذروا غضبه وعقابه الشديد الذى يحلُّ بهم إذا ظلُّوا كافرين عاصين

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤)   (٢) سورة الشورى الآية (٥٢)

(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(النُّطْفَةُ) : ماءُ الرجل ففيه الحيوانات المنوية ، وماءُ المرأة ففيه البويضة التى تلقح بحيوان من حيوانات منى الرجل ، فيحصل الحمل وفقا لمشيئة الله تعالى .

(خَصِيمٌ) : شديد المخاصمة والمجادلة . (مُبِينٌ) : واضح ظاهر .

التفسير

٣ ـ (خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) : بعد أن قرّر الله أنه لا إله إلا هو ساق الدليل على وحدانيته ،بأنه ابتدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، ونسّق بينهما أتمّ تنسيق ، ودفع كلا منهما فى فلكه المرسوم ، خلق هذا كله مقرونا بالحق ، مُتَّسِماً بالحكمة السامية فى الخلق والتدبير كما قال سبحانه : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُما إلاَّ بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ » [1] .

(تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : تنزه الله وتقدس وتسامى عن أن يكون له شريك فى ملكه أو نظير فى خلْقه وتدبيره ،فإن هؤلاء الشركاء عاجزون عن تدبير أنفسهم وجلب النفع لهم ، أودفع الضر عنهم ، فكيف يكونون شركاء لله الواحد القهار ، ثم تحدث عن خلق الإنسان ومخاصمته لربه فقال جل ثناؤه :

٤ ـ (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) .

وكما خلق الله السموات والأرض بالحق خلق الإنسان فى أبدع تكوين من ماء مهين حيث زوده بالسمع والبصر وأيده بالعقل المفكر . ولم يكتف بذلك ، بل أرسل إليه الرسل ،

(١) سورة الدخان الآية : ٣٨ ، ٣٩

وأنزل عليه الكتب ، وكان مقتضى هذا أن يقرَّ بوحدانية الله وقدرته ، وأن يبادر بعبادته ولكنه اتخذ هذه المواهب التى أيده الله بها ليجادل فى وحدانية الله ويخاصم الدعاة إليه إذ يقول : « مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »[1] مع أنه سبحانه قَوِىٌّ قَهَّارٌ منتقم ممن عصاه ، وصدق الله إذ يقول : « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ »[2] .

ويصح أن يكون المعنى ؛ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم بعد أن كان ماءً حقيرًا لاقيمة له ولا وزن ـ وهذا المعنى أنسب بمقام الامتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال على الله تعالى .

(وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ ۗ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨)

المفردات :

(الْأَنْعَامَ) : الإبل والبقر والضأن والمعز. (تُرِيحُونَ) : تعيدونها من المراعى إلى البيوت من الرواح وهى العودة إلى البيوت آخر النهار .

(تَسْرَحُونَ) : تطلقون سراحها من الحظائر صباحاً إلى المراعى الصالحة .

(بِشِقِّ الْأَنْفُسِ) : مايشقُّ عليها ويرهقها ويحملها مايثقلها من الأعباء .

(١) سورة يس من الآية: ٧٨ (٢) سورة الرعد ، الآية: ١٣

التفسير

٥ - (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ): أى وكما خلق الله الإنسان خلق له الأنعام وهى الإبل والبقر والمعز والضأن، وجعل له فيها دفئًا ، حيث يتخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس وأغطية تمنحه الدفء فى الشتاء كما تمنحه الدفء الداخلى بالطعام حيث تمنحه طاقات حرارية حينما يأكل لحومها ودهونها وألبانها ، فإن لكل طعام نوعا حراريًا خاصًا به يمنحه الله لآكليه ، وللإنسان فيها منافع كثيرة كالحرث والرى وغير ذلك من النعم التى تستنبط منها .

٦ - (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) : وكما تمنحكم تلك المنافع العظيمة فهى تدخل البهجة والسرور على نفوسكم بجمالها حين تعيدونها من مراعيها مليئة البطون ، حافلة الضروع وحين تخرجونها من حظائرها إلى المراعى متدافقة متموجة تنساب إليها فى مرح وخفة وحيوية.ونشاط متناسقة الأعضاء متسقة التكوين .

٧ - (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ) : أى ومن نعم الله سبحانه فى منافع الأنعام ولاسيا الإبل . أنها تحملكم وتحمل أمتعتكم الثقيلة من بلد إلى بلد لاتستطيعون الوصول إليه إلا بمشقة وعناء .

(إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ):هذا تعليل لما سبق ذكره من نعم الله على عباده ، مؤكد بعدة توكيدات ،وفى إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين إظهار لمزيد عنايته سبحانه بخلقه، وعظيم رأفته وواسع رحمته بهم ، والرأفة فرع من الرحمة تختص بدفع المكروه وتخفيف مايشق على عباده ، وأما الرحمة فتشمل هذا وغيره من أنواع التفضل والإنعام .

٨ - (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) : ومن نعم الله عليكم أنه خلق لكم الخيل والبغال والحمير وسخرها لكم لتركبوها وتنتفعوا بها فى السلم والحرب ، كما جعلها زينة لكم وجمالا تلفت الأنظار وتبهج النفوس .

(وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ) : وكما خلق لكم الأنعام والدواب يهديكم إلى اختراع وسائل أخرى للتنقل والحمل لم تكن موجودة فى عصر نزول القرآن وما تلاه إلى زمن قريب، مثل

السيارات والقطارات والطائرات والسفن الضخمة التى تسير بالبخار وغيره إلى غير ذلك من الوسائل التى لم تعرف حتى الآن ، وفى هذا الإعجاز القرآنى مالا يخفى على الباحثين الدارسين ، ولا تزال الكشوف متوالية إلى ماشاء الله مما لم يكن يخطر على بال .

(وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾)

المفـردات :

(قَصْدُ السَّبِيلِ) : مستقيم الطريق . (جَائِرٌ) : منحرف .

التفسير

٩ - (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ) : أى وكما أنعم الله علينا بالنعم الحسية الوفيرة تفضل بهدايتنا إلى الطريق المستقيم الموصل إليه سبحانه بما أنزله من الكتب، ومن بعثهم من الرسل ، ولو وكلنا إلى أنفسنا لضللنا هذا الطريق الذى دعا إليه جميع الرسل : وهو الذى وصانا به سبحانه فى القرآن ، وباقى الطرق معوج ينحرف عن الحق. وقد نهينا عن سلوكه كما قال تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »[1] .

(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) : أى ولو أراد سبحانه وتعالى هداية البشر جميعاً بطريق الجبر لهداهم ولكن حكمته السامية اقتضت أن يختبرنا ، ويتركهم لعقولهم واختيارهم ، بعد أن أرشدهم إلى آياته ودعاهم إلى الحق على ألسنة رسله « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »[2]

(١) الأنعام - ١٥٣

(٢) الأنفال - ٤٢

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(السَّمَاء) : كل ما ارتفع وعلا . والمقصود هنا السحاب .

(فيه تُسِيمُونَ) : تبعثون أنعامكم إلى المراعى لتسوم فى الشجر أى تأكل منه .

التفسير

١٠ - (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) :

استأنفت الآيات تعداد نعم الله على خلقه فإنه سبحانه يسلط أشعة الشمس على البحار والأنهار فيخرج منها بخار يتحول إلى سحاب ، ويسلط عليه الرياح ، فتحمله إلى حيث يشاءُ الله فينزل منه ماءً عذباً يشرب منه الإنسان والحيوان وينبت به العشب والأشجار كما قال سبحانه :

١١ - (يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ والأَعْنَابَ ومِن كُلِّ الثَّمرَاتِ) :

أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء أصنافاً مختلفة من النبات بدأتها الآية الكريمة بالزرع لأنه أصل الغذاء وعمود المعاش وبه قوت أكثر العالم . ثم أتبعته بذكر الزيتون لأنه غذاءٌ ، ودواءٌ وقدمت النخيل على الأعناب لأن فيها غذاءً متكاملا وفوائد أخرى ، ولأنها ينتفع بها زمناً طويلا . والمراد بالأعناب ثمار العنب. ومجيئها بلفظ الجمع لتعدد أنواعها ومنافعها ، ثم ختمت الآية الكريمة ماذكرته من أصناف النبات والشجر بقوله تعالى : «وَمِنْ كُلِّ الثَّمرَاتِ»

للإيذان بأن ماذكر من قبل إنما هو بعض النعم ؛ وأن خيرات الله وثمرات الشجر تفوت الحصر .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :إن فيما سبق بيانه من نعم الله العديدة لآية واضحة . على عظيم قدرته وتفرده بالوحدانية لقوم يتفكرون فى آيات الله فيشكرونه على سوابغ نعمه .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾)

المفـردات :

(ذَرَأَ): خلق . (يَذَّكَّرُون) : أصلها يتذكرون . أدغمت التاء فى الذال بعد قلبها ذالا. أى:يتعظون .

التفسير

١٢ ـ (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) :ومن نعم الله الكثيرة كذلك على الإنسان أنه خلق الأرض وهيأها لتدور حول محورها دورانًا نشأ عنه تعاقب الليل والنهار مما أتاح للإنسان السكون والهدوء والراحة فى أثناء الليل ،ويسّر له العمل والكد والكفاح فى أثناء النهار ؛ ومن نعمه سبحانه أن سخر الشمس لتمدنا نهارًا بالضوء والحرارة ، وسخَّر القمر ليمدنا بالنور الهادئ المريح ليلا ، وجعلهما مراصد للتوقيت الزمنى ، ولنعلم بهما مواقيت العبادات وعدد السنين والحساب .

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) : أى وكما سخر الله الليل والنهار والشمس والقمر ، سَخَّرَ النجوم فهى مسخرات بمشيئته وتمكينه إياها من أداء ما خلقت لأجله ، والنجوم جمع نجم ، وقد أطلقه الفلكيون على كل كوكب تشع منه حرارة ذاتية وضوء ذاتى وحوله مجموعة من الكواكب ترتبط به جاذبيةً واستنارةً وحرارةً كشأن الشمس بين كواكبها المرتبطة بها فكل نجم بين مجموعته هو شمس فيها ، وجميع النجوم وكواكبها منقادة لإرادة الله تعالى ، دائرة فى أفلاكها المرسومة وفقًا لحكمته وطبقًا لإرادته .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : إن فى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، لآيات ودلالات بالغة على قدرة الله وحكمته وإبداعه ووحدانيته ، لمن استعملوا عقولهم فاهتدوا بها إلى فاطر الأرض والسموات وآمنوا به وأفردوه بالعبادة والتقديس .

١٣ ـ (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) : أى وما خلق لكم فى الأرض مُتَعَدِّدَةً أصنافه مسخر بأمره أيضًا ، من حيوان ونبات وجماد ، فكل ذلك متنوع الأشكال مختلف الألوان والأصناف متعدد المنافع مسخر لنا لننتفع به كلما أردنا إن فى هذا كله لآية عظيمة على قدرة الله وحكمته ورحمته لكل من تذكر وتدبر فاتعظ بما رآه بصره وأدركته حواسه وفقهه عقله .

(وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ) : ذَلَّلَهُ ويسَّر الانتفاع به .

(مَوَاخِرَ) : جمع ماخر من مخر الماء شقه . (تَمِيدَ) : تضطرب .

التفسير

١٤ - (وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) :

وهو الذى سخر لكم البحار بقدرته وحكمته ، لكى تستطيعوا اصطياد كائناتها البحرية من الأسماك لتأكلوها طرية أى قبل أن يسرع إليها الفساد وسخرها أيضا لكى تتزينوا بحليتها ، وذلك باستخراج بعض الحلى منها ، مثل اللؤلؤ والمرجان والأصداف لاستعمالها فى الزينة .

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ) . أى وترى السفن تشق سطح الماء تستخدمونها فى صيد الأسماك واستخراج الحلى من البحر. (وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ) : أى ولتطلبوا بها منافع أخرى من فضل الله غير ما تقدم ،كالتجارة ونقل الحاصلات والبضائع من مرفإ إلى مرفإ ومن قطر إلى قطر ، وغير ذلك كالارتحال بها لطلب العلم حيث يوجد العلم والعلماء .

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ): أى وأمدكم الله بهذه النعم كلها لكى تشكروه على إحسانه وفضله وتقدروه حق قدره .

١٥ - (وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ) : أى ومن نعم الله الكثيرة عليكم أنه جعل فى الأرض جبالًا شامخات ثابتات تحفظ اتزانها فى دورانها حتى لاتضطرب فى حركتها .

(وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) : أى وجعل فى الأرض أنهارًا عذبة تجرى مياهها من منابعها إلى مصابها ، لتهيىء الرىَّ للإنسان والحيوان والنبات ؛ وجعل سبحانه فى الأرض طُرُقًا كثيرة تنتقلون فيها من مكان إلى مكان للتجارة وجلب الرزق وتبادل المنافع ، لكى تهتدوا إلى غاياتكم إذا سلكتموها .

١٦ - (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) : أى وجعل فى الأرض علامات لتوضيح الطرق من جبال وأنهار وغير ذلك ، كما جعل النجوم فى الليل عَلامات واضحة لتحديد الجهات فى البحر والبر والجو ، فقادة السفن والطائرات ورواد الفضاء يهتدون بالنجم القطبى أو سواه لتحديد مساراتهم واتجاهاتهم للوصول إلى أهدافهم .

(أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾)

التفسير

١٧ ـ (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ . . .) الآية .

أى إذا كان الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن مما يُعلم ومالا يُعلم وهو الخلاق العظيم فكيف يعبد معه مالا قدرة له على النفع والضر لنفسه أو لغيره وهو مخلوق لله ، وليس له فى الخلق أدنى نصيب ، أهما بعد هذا التباين متساويان فمن يخلق كل شىء كالذى لايخلق أقل شىء .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) : أى أتعرضون عن الحق الذى أيدته الآيات فلا تتعظون بما تسمعون من العظات وبما ترون من الآيات، وقد وهب الله لكم عقولًا لاتميزون بها الخير من الشر والنفع من الضر فكيف غفلتم عن هذه الحقائق .

١٨ ـ (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) : أى وإن تحاولوا أن تعدوا نعم الله التى أنعم بها عليكم فلن تستطيعوا أن تضبطوا عددها ولا تصل إليه قدرتكم فضلا عن القيام بحق شكرها ، فكم له من نعم خافية ونعم ظاهرة ترونها فى أنفسكم ، وفيما سخره الله لكم من نبات وحيوان وجماد وأمطار وبحار وأنهار وعيون وآبار وغير ذلك من نعم الله التى سخرها لمنفعة عباده وصدق الله حيث يقول : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ » .

وقد ختم الله هذه الآية بنعمة كبرى تفوق كل نعمة حيث قال جل ثناؤه :

(إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) : فيبشرهم بنعمة الغفران والرحمة ليبذلوا ما فى وسعهم لشكر نعمه ويحرصوا على طاعته قدر طاقتهم ، ولا ييئسوا من رحمته إذا ما قصروا فى طاعته ما داموا مؤمنين بربهم مصدقين برسالة نبيهم تائبين من ذنوبهم .

ثم عقب الله هذه الآية بما يفيد التحذير من الغلو فى العصيان طمعًا فى غفران الله ، وبما يطمئن أهل التقوى على طاعتهم سِرًّا وجهرها فقال سبحانه :

١٩ ـ (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) : أى والله سبحانه يعلم حق العلم ما تخفيه السرائر وما تبديه الجوارح ، فيثيب المحسن ويعاقب المسىء ويغفر للمستغفر ، وصدق الله حيث يقول : « وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »[1] .

(وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) : المراد بهم الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله .

التفسير

٢٠ ـ (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ . . .) الآية .

أى وكل الذين يعبدهم المشركون من دون الله من إنسان وأصنام وغيرها عاجزة عن أن تخلق أى شىء وإن كان حقيرًا ، فإنها مخلوقة وليست بخالقة عاجزة وليست بقادرة ، فكيف يعبدونها من دون الخلاق العظيم .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٤

٢١ـ (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى أن هذه المعبودات أموات فكيف عبدوها ، فهى إما صخورٌ صماءُ جامدة ليست فيها حياة وإما أحياء ، لكنهم فى حكم الأموات ، وهم لهذا لايشعرون متى يبعثون، والله سبحانه سيبعث هذه المعبودات الباطلة وعابديها ويخرجهم يوم القيامة للمحاجة فتتبرأ المعبودات من عابديها ثم يقذف بها وبعابديها فى النار كما قال سبحانه : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ »[1] . أما الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام فإنهم شهداءُ على أقوامهم الذين عبدوهم بغير حق كما فعل أصحاب عيسى من بعده عليه السلام ، حيث عبدوه واتخذوه إلهًا .

(إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(لَا جَرَمَ) : لا بد ولا محالة ـ أو حقًّا .

التفسير

٢٢ ـ (إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) : هذه الجملة تعتبر كالنتيجة للأدلة السابقة ، فكأنه قال : قد ثبت بما تقدم بطلان ألوهية غيره تعالى ، وتحققت الألوهية لله وحده ، فإلهكم إله واحد لاشريك له ، ولكن المشركين لاتقنعهم البراهين ، فهم على باطلهم مقيمون فلهذا قال سبحانه : (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) : فالذين لايصدقون بالحياة الآخرة وما فيها من عقاب خالد على الشرك ، قلوبهم منكرة وحدانية الله تعالى التى

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٨

قامت عليها البراهين ، لعدم خوفهم من العقاب على شركهم ، وهم لهذا مستكبرون عن قبول الحق والاستماع إلى رسوله الأمين ، والنظر فيما يقدمه لهم من الآيات والبراهين ، ولهذا كان لابد من وعيد الله لهم بقوله :

٢٣ - (لَاجَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) :

أى لا محالة أن الله تعالى يعلم ما يخفونه فى أنفسهم من الشرك وسوء الطوية وجميع معاصيهم وأسرارهم ، كما يعلم ما يعلنونه من ذلك فلا تخفى عليه منهم خافية ، فلابد من عقابهم على شركهم ومعاصيهم ، فإن الله تعالى لايحب المستكبرين عن الحق ، المتعالين عن أدلته وبراهينه ولايدخلهم جنته ، أخرج مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لَا يَدْخُلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التى سطروها ؛ جمع أسطورة .

(أَوْزَارَهُمْ) : أثقالهم والمراد منها ؛ آثامهم .

التفسير

٢٤ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : كان الوافدون على مكة للحج أو غيره يسألون كفار مكة عن هذا النبى الذى ظهر بينهم ، ورأيهم فيه وفيما أنزل

عليه ، فكان هؤلاء المشركون يسيئون فى إجابتهم لينفروهم منه ، ويبعدوهم عن الاستماع إليه ، وذلك ما حكاه الله فى هذه الآية .

والمعنى : وإذا سئل هؤلاء المشركون المتكبرون عما أنزله الله من الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم زعموا أنه حكايات ملفقة سطرها القدماء ، وزعم محمد أنها أنزلت عليه من الله تعالى ، وكما حكى الله هذه الفرية عن المشركين هنا ، حكاها عنهم فى قوله فى سورة الفرقان : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

٢٥ - (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى أن هولاء المستكبرين قالوا لمن يسألهم عما أنزل من الحق على محمد : هذا أساطير الأولين وأباطيلهم ، لتكون عاقبتهم أن يحملوا آثامهم كلها ، ومنها هذا الذى اقترفوه فى التنفير عن الحق ، ويحملوا أيضا بعض آثام من أضلوهم وأبعدوهم عن الإسلام بما افتروه على القرآن الكريم ، وهو إثم الإضلال ، فهما شريكان فى الإثم ، هذا يضله ، وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر .

والمراد من قوله تعالى : (يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) : أنهم يضلونهم غير عالمين بأن مايدعونهم إليه هو طريق الضلال ، وفائدة التقييد بقوله : (بِغَيْرِ عِلْمٍ) الإشعار بأن مكرهم لايروج عند ذى لب وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة ، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لايكون عذرا إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين الْمُحِقِّ الجدير بالاتباع وبين المبطل ، أخرج مسلم وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أَجْرِهِ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا - . . » إلخ .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) : أى ألا بئس ما يحملونه من آثامهم وآثام من اتبعوهم فى الكفر والضلال .

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى كادُوا لِرُسُلِهِمْ يُرِيدُون الإيقاع بهم .

(فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ) : أى فأتى أَمْرُ الله بنيانهم من أُسُسِه .

(فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ) : أى سقط عليهم سقف بنيانهم .

(يُخْزِيهِمْ) : يُذِلهم بعذاب الخزى . (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) : هم الأَنبياءُ والمؤمنون.

التفسير

٢٦ - (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ) :

بعد أن حكى الله تعالى عن قريش قولهم عن القرآن « أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » وبين أنهم سوف يحملون يوم القيامة ذنوبهم وذنوب من يضلونهم، جاءت هذه الآية وما بعدها لتبين أنهم قد سبقهم مَنْ قبْلَهُم بالكفر بالله وتكذيب رسلهم ، وكانت عاقبتهم فى الدنيا الهلاك وفى الآخرة الخزى والعذاب ، وأن عليهم أن يحذروا مثل مصيرهم .

والمعنى : قد تآمر الذين من قبل قريش على رسلهم ، فدبروا لهم المكايد ليهلكوهم أو ليقضوا على الحق الإلٰهى الذى جاءُوا به أممهم ، فأحبط الله كيدهم، وسقط عليهم بنيان المؤامرة التى دبروها ، دون أن ينال الرسل منها كريهة .

شبهت حال الماكرين برسلهم فى تدبير مكايدهم التى أرادوا بها الإيقاع برسل الله وفى إبطال الله تعالى تلك الحيل والمكايد ، وجعلها أسبابًا لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنيانًا ، وعمدوه بالأساطين ، فأُتِيَ ذلك البنيانُ من قبل أساطينه، بأن تداعت فسقط عليهم السقف من فوقهم فهلكوا .

(وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) :

أى أتاهم الهلاك والدمار من جهة بنيانهم الذى أقاموه ضد الرسل، وقد كانوا يظنون أنه محكم بحيث لا يأتيهم من جهته ما يؤذيهم ، فخيب الله ظنهم وجعله سبب هلاكهم فى دنياهم .

وكذلك أنتم يا أهل مكة ، أحكمتم أمركم ضد القرآن العظيم ، وقلتم فيه ما قلتم ومن جملته أنه أساطير الأولين ، فسيأتيكم العذاب فى الدنيا من حيث لاتحتسبون كما فعل الله بمن قبلكم ، إن ظللتم على كفركم .

٢٧ - (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) :

أى ثم يوم قيام الناس من قبورهم لحساب ربهم يذل الله المشركين بعذاب الخزى على رءوس الأشهاد ، ويقول لهم تفضيحا وتوبيخا : أين شركائى فى الألوهية الذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فى شأنهم ، فاستحضروهم ليشفعوا لكم أو لينقذوكم إن كنتم صادقين فى مزاعمكم نحوهم ، وهيهات أن يجدوهم شافعين أو منقذين بل لائمين مكذبين .

(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

أى قال الذين أوتوا العلم من أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد ويقيمون لهم أدلته - قالوا لهم - شماتة بهم وتحقيقًا لما توعدوهم به : إن الفضيحة والذل والهوان اليوم على الكافرين بالله ورسله وآياته .

(ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(أَلْقَوُا السَّلَمَ) : أظهروا المسالمة والانقياد والإذعان .

(مَثْوَى) : مستقر ومكان إقامة .

التفسير

٢٨ - (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) :

تسوق هذه الآية مشهدا من مشاهد النهاية لحياة الظالمين المصرين على الكفر ، وهو أن ملائكة العذاب حين تقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والعصيان ، يستسلمون زاعمين أنهم لم يرتكبوا إثما فى حياتهم وأنهم ما كانوا يعملون السوء ، فترد عليهم الملائكة قائلة :

(بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى نعم قد عملتم السوء؛إن الله سبحانه واسع العلم ، محيط بكل ماكنتم تعملونه قبل وفاتكم ،فكيف تكذبون على من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ومن « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ »[1] .

(١) سورة غافر الآية : ١٩

٢٩ - (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) : أى فادخلوا جهنم من أبوابها السبعة التى أعدت للكفار والعصاة ، لتبقوا فيها خالدين لاتبرحونها أبداً .

(فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) : أى فما أسوأ المقرَّ الذى أعده الله للمتكبرين فى جهنم . والمراد من المتكبرين هنا من ترفعوا عن عبادة الله والاستجابة للرسل ، وآثروا الكفر على الإيمان والعصيان على الانقياد والشرك على التوحيد .

(* وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢))

المفـردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : بساتين إقامة من عدن بالمكان أقام به . (طَيِّبِينَ) : صالحين . (سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ) : وأمان لكم .

التفسـير

٣٠ - (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا . . .) .

بينت الآيات السابقة حال الأشقياء الذين أشركوا بالله وكذبوا رسله . وقالوا عن القرآن لما سئلوا عنه : «أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ » فكان جزاؤهم جهنم خالدين فيها ، ثم تلتها هذه الآيات لبيان حال السعداء الذين أحسنوا القول لسائليهم والعمل لربهم . فأجزل لهم ربهم

خيرى الدنيا والآخرة . وهؤلاء يقول فيهم سبحانه : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) : أى وقال القادمون على مكة للسؤال عما أنزله الله على النبى الذى سمعوا بمبعثه ـ قالوا ـ للمتقين من المؤمنين : (ماذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟) : أى ما الذى أنزله ربكم على رسوله : (قَالُوا خَيْرًا) : أى قالوا لهم : أنزل خيرًا كثيرًا وهو القرآن ففيه الخير كله ، فهو رحمة وهدى وبركة لمن اتبعه وآمن به ، وهم فى جوابهم هذا يخالفون الكفار . حيث أنكروا إنزاله بما أجابوا به بقولهم : « أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام موسم الحج من يأتيهم بخبر النبى عليه السلام. فقد نقل عن السُّدى قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمدًا صلى الله عليه وسلم رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله . فانظروا أُناسًا من أشرافكم . فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة . فمن جاء يريده ردوه عنه . فكان إذا أقبل الرجل وافدًا لقومه ينظر ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ـ فينزل بهم . فيكفونه عنه ، ويأمرونه بالانصراف . قائلين له : إن لم تلقه كان خيرًا لك . لأنه رجل لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم . أما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقوه ، فإذا كان الوافد ممن أراد الله لهم الرشاد . وقالوا له مثل ما قالوا لغيره أجابهم بقوله : أنا شرُّ وافد إن رجعت إلى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه . فيلقى أصحاب محمد رضى الله عنهم فيسألهم فيخبرونه بحقيقة الحال : اهـ .

وعلى هذا فالسائلون هم الوافدون . والمجيبون هم المؤمنون : ويجوز أن يكون السائلون والمسئولون من المؤمنين . حيث يسأل بعضهم بعضًا . ليقوى إيمانه . وليشعر بلذة الجواب الذى يعلمه . ويرغب فى سماعه ، وقد يكون السائل من الكفرة المعاندين وغرضه التلاعب والتهكم .

ثم أخبر سبحانه عما أعدَّه الله لعباده المتقين من حسن الجزاء فى الدنيا والآخرة فقال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) : أى للذين أحسنوا القول والعمل فى الدنيا حسنة جزاء إحسانهم ينالونها فى الدنيا . والمراد بها النصر والفتح والمدحُ والثناء وغير ذلك من المكرمات .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) : أى مثوبتها خير وأعظم مما أوتوه فى الدنيا من مثوبة لأنها إلى بقاء . وكل ما فى الدنيا إلى فناء ، ولأن نعيمها لايعدله نعيم آخر ، ولهذا ختم الآية بمدحها بقوله :

(وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) : أى دار الآخرة ، واعلم أن قوله سبحانه : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة .. » الآية – إما أنه مستأنف للثناء على من أجابوا السائلين بأنه تعالى أنزل خيرًا ، حيث وصفهم بأنهم أحسنوا فى هذه الدنيا إحسانًا مطلقًا ، وعدَّ جوابهم عما سئلوا عنه من جملة إحسانهم ، ووعدهم عليه الجزاء الأوفى . وإمَّا أن يكون هذا القول الكريم تفسيرا منهم لقولهم : « خيرًا » أى قالوا أنزل خيرًا . ذلك الخير الذى قالوه هو للذين أحسنوا إلخ . قالوه ترغيبًا للسائل وإخبارًا عما وعد الله به عباده فيما أنزله على رسله .

٣١ – (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . .) : أى إن الدار التى وعد بها المتقون هى جنات إقامة واستقرار لايخرجون منها باختيارهم ولا يخرجهم منها أحد . وهذه الجنات تجرى من تحت أشجارها وبين قصورها الأنهار . إتمامًا لبهائها وجمالها وكمال الابتهاج بها .

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) : أى لأهل الجنة دون سواهم من أنواع المشتهيات التى تميل إليها نفوسهم وترغب فيها طباعُهم فتتمناها .

(كَذَلِكَ يَجْزِى اللهُ الْمُتَّقِينَ) : أى مثل ذلك الجزاء العظيم يجزى الله كل من اتقاه وابتعد عن الشرك وتجنب المعاصى والآثام . فلا يختص به أحد دون آخر . وفى هذا الوعد الكريم إشارة إلى تحسير الكفار . وتحزينهم على ما كان منهم . حينما سئلوا عما أنزل ربهم إذ « قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » حيث حرموا هذا الثواب الجزيل الذى حصل عليه المتقون بحُسن إيمانهم وصادق جوابهم للسائلين .

٣٢ – (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ . . .) : هذا بيان لحال المتقين عند الاحتضار أى هم الذين تتوفاهم الملائكة طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى ، ومن كل سوء ، ووصفوا بذلك للإيذان بأن التقوى لاتتحقق إلا بالطهارة عما ذكر إلى وقت الوفاة . حثًا لهم على التمسك والاستمرار ، ولغيرهم على التحصيل والعمل ، وقيل : هو كلام مستأنف

معناه : الذين تتوفاهم الملائكة فرحين طيبى النفوس بما يسمعونه من بشارتهم لهم بالجنة . تلك البشارة التى يحكيها قوله سبحانه :

(يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ) : أى يقول الملائكة لهم مطمئنين : سلام عليكم وأمان لكم أو تحية لكم من الله .

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) : أى أبشروا بدخول الجنة التى أعدها الله لكم ووعدكم نعيمها بعد البعث ، فالمراد بالدخول هنا هو دخول أهل الجنة فيها حقيقة يوم القيامة ، والأمر به قبل وقته بشارة بتحقق وقوعه فى وقته بعد البعث .

(بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى ادخلوا الجنة بسبب ما وفقكم الله له من ثباتكم على التقوى وتمسككم بالطاعة والاستقامة على عمل الصالحات . ولا تعارض بين هذه الآية وحديث «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدُكُم بِعَمَلِهِ» لأن المراد فى الحديث أن العمل لا يساوى دخول الجنة ، ولا يصلح بذاته أن يكون مقابلا للجنة . فإن الله تعالى هو الذى أقدرنا على العمل الصالح ، فإن كافأنا عليه فذلك محض فضل من الله تعالى ، وأما الآية فقد أفادت أنه تعالى تفضل فجعل العمل سبباً شرعيًّا لدخول الجنة . ولو لا ذلك لما استحق أحد بعمله هذا الثواب العظيم .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(أَمْرُ رَبِّكَ) : المراد به يوم القيامة أو العذاب الدنيوى . (وَحَاقَ بِهِمْ) : وأحاط بهم ، وخصّ لاستعمال لفظ حاق بالإحاطة فى الشر ، بعد أن كان فى أصل معناه للإحاطة مطلقاً .

(يَسْتَهْزِءُونَ) : يسخرون .

التفسير

٣٣ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ ....) :

أى ما ينتظر هؤلاء الكفار بعنادهم إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك وعمل الشر ، أو ما ينتظرون إلا أن تنزل الملائكة عليهم للشهادة بصدق نبوتك .

(أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ) : المراد بأمره تعالى العذاب الدنيوى المستأصل لهم جميعاً كالزلزلة . والخسف ، والريح الصرصر ونحوها ، وفى التعبير برب مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم . إظهار لكمال العناية به والرعاية له .

(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى مثل ما فعل هؤلاء من الشرك والتكذيب فعل الذين سبقوهم مع أنبيائهم . فعاقبهم الله على فعلهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، كما يشير إليه قوله سبحانه :

(وما ظَلَمَهُمُ اللهُ) : فيما أنزل بهم من العذاب . لأنه سبحانه أعذر إليهم ، وأقام عليهم حججه . بإرسال رسله ، وإنزال كتبه .

(وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يظْلِمُونَ) : حيث عرضوها للعذاب بمخالفة الرسل ، والتكذيب بما جاءوا به ، أى أن الله لم يظلمهم بتعذيبهم . ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم لمباشرتهم السيئات الموجبة لعقوبتهم . وذلك ظلم بين منهم لأنفسهم .

٣٤ – (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَاعَمِلُوا) : معطوف على قوله سبحانه : « فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم » أى كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ماعملوا .

والمعنى أن الله جل شأنه أنزل بالأمم السابقة أجزية أعمالهم السيئة التى اقترفوها وتمسكوا بها ، وتسمية الأجزية سيئات للمشاكلة كما فى قوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »[1] . أو لأنها مسببة عن أعمالهم السيئة ، فسميت باسم سببها إيذاناً بفظاعته ، وإشارة إلى بالغ قبحه ، ويجوز أن يكون المعنى : فأصابهم جزاء سيئات ماعملوا .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) : أى وأحاط بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به ويسخرون منه كلما توعدتهم به رسلهم إن استمروا على كفرهم ، وعبر بالحيق الذى خصه الاستعمال اللغوى بإحاطة الشر ، للإيذان بأن العذاب لم يقتصر على مجرد إصابتهم ، بل شملهم وعمهم ، أو المعنى وأحاط بهم جزاء استهزائهم برسولهم أو به وبغيره .

---

(١) سورة الشورى من الآية – ٤٠ – .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مِن دونِهِ) : من غيره . (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ) : أى فما عليهم . (الْبَلَاغُ المُبِينُ) : أى التبليغ الواضح أو الذى يبين الحق من الباطل .

التفسير

٣٥ - (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شىء نحْنُ وَلَا آباؤُنا) : شروع فى بيان فن آخر من كفر أهل مكة ، وهو اقتناعهم بما هم فيه من شرك وضلال واحتجاجهم لصحته بأنه تعالى شاءه لهم ودفعهم إليه . ، يريدون من قولهم هذا تبرير عدم الاستجابة لما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم إليه من الإيمان بما جاءهم به ،والتعبير عنهم بالذين أشركوا : لتقريعهم على الشرك وبيان أنه سبب الداء ، وقمة البلاء .

والمعنى : وقال مشركو مكة للرسول محتجين لما هم عليه من الشرك : لو شاء الله عدم عبادتنا لشىء غيره لما وقع منا انحراف ومخالفة لمشيئته ، ولأخلصْنا العبادة له وحده . فلم نشرك نحن ولا آباؤنا الذين نهتدى بهم ، ونتمسك بالاقتداء بآثارهم فى كل أمورنا .

(وَلَاحَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِن شَىْءٍ) : من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مِمَّا ابتدعوا تحريمه[1] واخترعوه من تلقاء أنفسهم وغرضهم من قولهم ذلك . تكذيب الرسول والطعن فى الرسالة رأساً بما حاصله أن ماشاء الله تعالى يجب ومالم يشأ يمتنع ، فلو أنه سبحانه شاء أن نوحده ولانشرك به شيئاً ، ونحل ما أحله ، ولا نحرم شيئاً

(١) تقدم بيان هذه المحرمات التى حرموها على أنفسهم فى الآيتين ١٣٨ - ١٣٩ من سورة الأنعام .

مما حرمنا كما تقول الرسل وينقلونه من جهته تعالى ، لكان الأمر وفق مشيئته من التوحيد ونفى الإشراك وتحليل ما أحله وعدم تحريم شىء مما حرمنا ، وحيث لم يتحقق هذا . ثبت أنه جل شأنه لم يشأ شيئاً مماذكر . بل شاء مانحن عليه ، وتحقق أن ماتقوله الرسل هو من تلقاء أنفسهم . فرد عليهم سبحانه بقوله :

(كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء الشنيع بالرسل وادعاء أن شركهم رضيه الله وشاءه لهم ــ مثل ذلك كله اقترفه الذين سبقوهم من الأمم السابقة . فأشركوا بالله ، وحرموا ما أحله ، وجادلوا رسلهم بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، وأعرضوا عما يدعونهم إليه استخفافاً بهم فأهلكوا .

وقد أنكر الله عليهم مجابهتهم للرسل ، وتماديهم فى عنادهم ، وبين أن المرسلين ليسوا مسئولين عن كفرهم بعد أن بلغوهم شريعة ربهم بوضوح وإخلاص فقال سبحانه :

(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى ليس من شأنهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً . لإظهار طريق الحق وإبانة أحكام الوحى : بما ينبىء أن مشيئته جل شأنه . إنما تتعلق بهداية من صرف قدرته واختياره إلى تحقيق الحق ، وفعل الطاعة لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »[1] .

وهى تتعلق كذلك بإشراك الذين اتجهوا إلى اقتراف الشرك والعصيان ، وفق علمه تعالى بطبيعتهم ومباشرتهم الاختيارية لماعملوا . فالله سبحانه إنما شاء شركهم لأنه علم أزلا أنهم لايؤمنون باختيارهم وسوء تصرفهم ، وأما إلجاؤهم إلى الإيمان . فليس ذلك من وظيفة الرسل التى بعثوا بها إلى أممهم ، ولا من الحكمة التى يدور عليها التكليف . لأن شأنهم تبليغ الأوامر والنواهى لاتحقيق مضمونها وإجراء موجبها على الناس قسرًا وإلجاء ، وإنما المسئولية على الكفار أنفسهم ، ولاتنفعهم معاذيرهم الواهنة ، ومنها قولهم إنما أشركوا بمشيئة ربهم ، فإنه تعالى يقول : « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » .

(١) سورة العنكبوت من الآية رقم (٦٩) .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الطَّاغُوتَ) : كل ما عبد من دون الله ويستعمل فى الواحد والجمع .

التفسير

٣٦ - (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) :

فى الآية تأكيد للرد السابق على المشركين الذين أنكروا أنهم على باطل ، بدعوى أن ماهم عليه من الشرك وقع وفق مشيئة الله تبارك وتعالى ، حسب ماجاء فى النص الكريم حكاية عنهم : « لَوْشَاءَ اللهُ مَاعَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شىء » .

والمعنى : ولقد بعثنا فى كل أمة من الأمم السابقة رسولا خاصًّا بهم يبلغهم معالم الهدى ، ويرشدهم إلى قواعد النظر ، ويمدهم بأدلة يدركها السمع والبصر . قائلا لهم : اعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة سواه كالشيطان والأوثان والكهان وكل داع إلى الضلال ، ولما بلَّغوا مابعثهم الله به من الأمر بعبادته وحده . واجتناب ماعداه . تفرقت أممهم .

(فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللهُ) : أى أرشده إلى الحق الذى هو دينه ، وجنبه الطاغوت بعد أن اتجه العبد إلى ربه ، يبتغى منه التوفيق والهداية إلى انتهاج هذا الطريق القويم .

(وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ) : أى لزمته بالقضاء عليه بالكفر إلى موته . لعناده وإصراره على مااختاره لنفسه من التمسك بالضلال مع وضوح الأدلة الداعية إلى الحق الأبلج . ولم يكن وقوع ذلك عن طريق من طرق القسر والإلجاء كما زعموا .

(فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) : أى فسيروا فى أكناف الأرض وأنحائها . أيها المشركون المكذبون الذين قلتم : « لَوْشَاء اللهُ مَاعَبَدْنَا مِن دونِهِ مِن شَىْءٍ » . فانظروا معتبرين بما حدث للمكذبين قبلكم من عاد وثمود ومن سلك طريقهم ، فإنكم ستشاهدون فى ديارهم آثار الهلاك المبيد ، والعذاب المستأصل ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حلّ بهم ، وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلال عليهم ، من غير إخبار بحلول العذاب بهم ، لأن فى أمرهم بالرؤية والمشاهدة لآثار العذاب لمن قبلهم من المكذبين ما يغنى عن ذكر حلوله بهم .

(إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(تَحْرِصْ عَلَىَ هُدَاهُمْ) : تجتهد فى طلب هداهم .

التفسير

٣٧ـ (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ) : هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لإخباره بأن من سبقت له الضلالة بسوء اختياره ، وإفساده استعداده . لا يهديه الله مهما بذلت من جهد فى تقويمه ، وقلعت من نصح لإرشاده بعد أن أضله وفق علمه بسوء اختياره . والمعنى : إن تحرص أيها الرسول على هدى قومك فاعلم أنه تعالى لايخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن وجبت له الضلالة بسوء اختياره .

(وَمَالَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ) : يدفعون عنهم العذاب يوم القيامة ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ودع أمرهم لربك ، فهو أعلم بحالهم وما ينبغى لهم .

(وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(الجَهْدَ) : الوسع والطاقة وهو بفتح الجيم وضمها : من جهد نفسه فى الأمر . بذل أقصى جهدها وطاقتها فيه ، وبابه نفع . وجهد الأيمان ؛ المبالغة فيها أو فى تقويتها .

التفسير

٣٨ - (وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ) : شروع فى بيان فن آخر من أباطيل أهل مكة والتعجيب من صفتهم ، فقد ذكر الله تعالى أنهم أقسموا بالله . وبالغوا فى تأكيد أيمانهم وتغليظها . بأنه سبحانه لايبعث مَن يموت ، وهذا منهم اضطراب وسوء إدراك فإنهم معترفون بأنه تعالى خالق السموات والأرض وما فيهن ، فكيف ينكرون أن يبعث من فى القبور تحقيقاً للعدالة بين عباده ، بأن يجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ولهذا رد عليهم سبحانه ردًّا بليغاً بقوله تعالى :

(بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا) : أى بلى يبعثهم ، وقد وعد الله بذلك وعداً ثابتاً ، لابد من إنجازه ، لأنه أخذ على نفسه العهد بوقوعه ، ولن يخلف الله وعده .

(ولَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ) : أى ولكن أكثر الناس يجهلون أنهم مبعوثون لجهلهم بشئون الله من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز ، ولعدم وقوفهم على سر التكوين ، وعلى أن البعث حق لتحقيق العدل حين الجزاء ، فلجهلهم بكل هذا وإعراضهم عن الإدراك والانتفاع بالتوجيه والنصح أنكروه وبالغوا فى إنكاره وكذبوا الرسل فى إخبارهم به . ويجوز أن يكون قوله : « لَايعْلَمُون » للإيذان بأن ماعند أكثرهم بمعزل عن العلم المعتد به ، وإنما هو توهم صرف ، وجهل محض . وعلى هذا يكون لفظ « يعلمون » منزلا منزلة الفعل اللازم لم يراع فيه تعلقه بمفعول أصلا .

٣٨ـ (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ....) : أى يبعث الله الأموات مؤمنهم وكافرهم يوم القيامة ، ليبين لهم بذلك حقيقة الحال ، بما يحصل لهم من مشاهدة حقائق الأمور كما هى ، ومعاينتها بصورها الحقيقية . فيصل بذلك علم المؤمنين إلى عين اليقين ، ويتضح للمكذبين الجاحدين الحق الشامل لجميع ماخالفوه وأعرضوا عنه . مما جاء به الرسل الذين بُعثُوا إليهم ويدخل فيه البعث دخولا أَوَّلِيًّا .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : بالبعث وأقسموا على إنكاره وكفروا بالله سبحانه بالإشراك وتكذيب وعده الحق .

(أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ) : فى كل أقوالهم عن الله ورسله من أكاذيب ، ومن جملة ذلك قولهم : « لا يبعث الله من يموت » . وجعلت غاية البعث هنا ماذكر من بيان ما اختلفوا فيه وعلمهم أنهم كانوا كاذبين فى إنكاره ، لأن النص الكريم فى معرض الرد على المنكرين له ، وإلا فالمقصود الأصلى من البعث باعتبار ذاته إنما هو الجزاء ، وقد تكرر ذكره فى مواضع أخر ....

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾)

التفسير

٤٠ - (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْنَٰهُ . . .) الآية .

استئناف لبيان أن بعث العباد يوم القيامة ، ليس بعسير على الله تعالى حتى يستبعده الكفار وذلك لسهولة التكوين عليه بدءا ، والإعادة عليه غاية :

والمعنى : ماقولنا لشيء إذا تعلقت بإيجاده إرادتنا إلا (أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) : أى أن نقول تبليغاً له : «كُن» فإذا قلنا له ذلك فهو يكون . وهو تمثيل لسهولة تأتّى المقدورات لله تعالى حسبما تتعلق بها مشيئته ، وتصوير لسرعة إيجادها والمقصود أنه تعالى عند تعلق مشيئته بإيجاد شيء أوجده بقدرته فى أسرع مايكون ، فلايمتنع عليه إيجاده عند إرادته له . كما لا يمتنع المأمور الممتثل عند أمر الآمر المطاع ، وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون . فإنه تعالى ليس بحاجة إلى ذلك ، كما أن المعدوم الذى يريد الله إيجاده لايعقل خطابه ، لأن الخطاب يكون للموجود دون المعدوم وإذا كان كل مقدور لله تعالى يتحقق بهذه السهولة والسرعة . فكيف يمتنع عليه البعث كما يدعى المنكرون الضالون مع أنه بعض مقدوراته سبحانه . .

(وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(الهِجْرةُ) : بكسر الهاء وضمها : الخروج من أرض إلى أخرى ، والهجرة إذا أطلقت انصرفت إلى هجرة المسلمين إلى المدينة قبل الفتح مالم تدل قرينة على خلافه كماسيأتى فى بيان سبب النزول (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) : لننزلنهم ، يقال بوَّأه منزلا وفيه أنزله . كأباءه .

التفسير

٤١ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ . . . .) : هذه الآية قيل إنها نزلت فى المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين اشتد بهم أذى المشركين بمكة حتى اضطروهم إلى الخروج إلى الحبشة فرارا بدينهم ، وقد نقل عن ابن عباس أنها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وأبى جندل وغيرهم . أخذهم المشركون بعد هجرة النبى إلى المدينة فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام ، فأما صهيب فقال أنا رجل كبير . إن كنت معكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم . فافتدى منهم بماله . وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال: ربح البيع ياصهيب ، وهذا يفيد أنها نزلت بالمدينة ، والصحيح فى سبب النزول هو الأول لأن السورة مكية عدا ثلاث آيات فى آخرها ، ومعنى الآية على هذا : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا إلى الحبشة من وطنهم مكة وتركوا أموالهم ، وأهليهم وكل عزيز عليهم فى سبيل الله ، لنصرة دينه والحفاظ عليه ابتغاء وجهه والتماس رضاه ، وكانت هجرتهم بعد أن حل بهم من الظلم أقساه ، ومن التعذيب والتنكيل مايتجاوز الاحتمال . هؤلاء المهاجرون المظلومون .

(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) : أى لنبوئنهم مباءة حسنة . والمراد بها المدينة أو لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة بما استولوا عليه من فتوح صارت لهم فيها ولايات .

(وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) : أى ولأجر دار الآخرة أكبر مما وعدوه من أجر الدنيا ، وكان عمر رضى الله عنه إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له : خذ بارك الله تعالى لك فيه . هذا بعض ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ، ثم تلا الآية .

والضمير فى قوله تعالى: (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) : إن كان لكفار مكة فالمعنى ، لو علموا ما ادخره الله لهؤلاء المهاجرين من خيرى الدنيا والآخرة لبادروا إلى الإيمان ولو افقوهم فى الدين ، وإن كان للمهاجرين فالمعنى ؛ لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد والصبر على الابتلاء .

٤٢ـ (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : أى أصحاب هذى البشرى هم الذين صبروا على ايذاء المشركين لهم ، وفراق أهليهم وأموالهم ووطنهم وبيوتهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويعتمدون ولهذا حقق لهم من فضله ما بشرهم به .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالحجج والبراهين الواضحات ، والمراد بها : المعجزات . (والزُّبُر) : جمع زبور وهو الكتاب ، تقول العرب . زبرْتُ الكتاب ؛ أى كتبْتُه . والمراد بالزُبر ؛ الكتبُ السابقةُ .

٤٣ـ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ...) : نزل النص الكريم للرد على مشركى مكة ـ حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا . فهلاً بعث إلينا ملكا فقال سبحانه إبطالا لقولهم :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ) : أى جرت السنة الإلهية حسبما اقتضته الحكمة بألا يبعث الله للدعوة إلى دينه ، إلا رجالاً يوحى إليهم بوساطة الملك الذى يحمل إليهم أوامر الله ونواهيه لتبليغها إلى أممهم ، وتلك الأمم حسب طبيعتها الآدمية لاتستطيع معاينة الملك على صورته الأصلية ، فإنهم يهلكون إن جاءهم بها ، فلابد من أن يكون بصورة رجل لكى يحتملوا لقاءه ، ولكنه فى هذه الحالة يلتبس عليهم الأمر فيظنونه بشراً كما قال تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً[1] » . ولما كان المقصود من خطاب الله لرسوله هو تنبيه الكفار إلى مضمونه . صرف الخطاب إليهم حيث قال سبحانه :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) : أى فاسألوا أهل الكتاب الذين أسلموا كما قال سفيان ، أو المراد أهل الكتاب مؤمنهم وكافرهم . لأن من لم يؤمن منهم معترف بأن الرسل كانوا بشرا . أو المراد علماء وأحبار الأمم السابقة الذين يجيدون ذكرها وحفظها .

(إِن كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ) : أن جميع الأنبياء كانوا رجالا فاسألوهم ليعلموكم ذلك .

٤٤ - (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) :

البينات : الحجج ، والزبر : الكتب ؛ جمع زبور وهو الكتاب أى أرسلنا الأنبياء بالحجج الواضحة ،والبراهين الساطعة المؤيدة لهم ،الدالة على صدقهم ،وأرسلناهم بالكتب المنزلة عليهم بيانا للشرائع والتكاليف.

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) :أىالقرآن وهومأخوذمنالتذكيرأى الوعظ والإيقاظ من الغفلة .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِمَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) :من ربهم فى هذا الكتاب من العقائد والأحكام والأخلاق بقولك وفعلك . لعلمك بمعنى ما أنزل إليك ، وحرصك عليه. واتباعك له . فتفصل لهم ما أجمل ، وتبين ما أشكل بيانًا شافيًا ، وبنحو هذا المعنى قال مجاهد ، فقد نقل عنه أن المراد بهذا التبيين شرح ما أشكل ، وتفسير ما أجمل إذ هما المحتاجان للتبيين ، وأما النص فى معناه والظاهر فلا يحتاجان إليه : اهـ نقلا عن الألوسى

وبالجملة فالمعنى أنزلنا إليك القرآن لتبين للناس ما خفى عليهم من أسراره وعلومه التى لا تكاد تحصى .

---

(١) سورة الأنعام الآية:٩

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) : أى رغبة فى أن يتأملوا فينتبهوا للحقائق . ليكون ذلك داعيًا لهم إلى الاحتراز عما أصاب السابقين من العذاب ، ودافعا إلى الاهتداء ليفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة .

(أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ) : أى عملوا السيئات بمكر وخبث .

(أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) : أى يشق بهم الأرض فيهلكوا فى جوفها ، يقال: خسف المكانُ أى ذهب فى الأرض ، وخسفه الله أى شقه وخسفه بفلان أى شق المكان وغيب الشخص بداخله ، ومنه قوله تعالى: « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » . وبالجملة فهو لازم ومتعد (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ) : أى يهلكهم فى حركتهم إقبالا وإدبارًا ، مقيمين أومسافرين . (عَلَى تَخَوُّفٍ) : على مخافة وحذر من الهلاك ، أو على تنقص فى أنفسهم وموارد رزقهم إلى أن يهلكوا جميعًا . (وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِين) : أى وما هم بممتنعين علينا بقوتهم – أو بالهرب فرارًا من بأسنا .

التفسير

٤٥ – (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ . . . .) :هذا وعيد للمشركين من أهل مكة الذين احتالوا بالسيئات فى إبطال الإسلام ، فمكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث دبروا فى خفاء كل أسباب الإيذاء له ولأصحابه الذين آمنوا معه واتبعوه، وهو وعيد عام لكل ماكر ، والاستفهام للإنكار ، ومعناه : يجب ألا يأمن هؤلاء الماكرون العقوبات السيئة التى تحل بهم

كما حلت بالمكذبين قبلهم ، وكيف يحق لهم أن يأمنوا إنزال أشد العقوبات بهم مع قدرته جل شأنه على :

(أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) : أى يهلكهم بالخسف وهو تغييبهم فى الأرض بتغويرها بهم - قال ابن عباس : كما خسف بقارون - يشير بذلك إلى قوله سبحانه « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[1] .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) : أى يأتيهم عذاب الله وهم فى غفلتهم ولهوهم ، أو من مأمنهم حيث يبتغون الأمن والسلام ، أو من الجهة التى يرجون منها الخير والبركة . كما فُعل بقوم لوط وغيرهم من الأمم المهلكة .

ولقد حدث لهم ذلك يوم بدر ، فقد أهلكوا مع كثرتهم عددًا وعتادًا وهم يأملون النصر والغنيمة .

٤٦ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ) : أى ينزل بهم العذاب فى تنقلهم للتجارة بعيدين عن مساكنهم . قاله قتادة ، وقال الزجاج : المراد ما يعم سائر حركاتهم فى أمورهم ليلا ونهارًا .

(فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) : أى فلا يستطيعون الإفلات والفرار من عذابه تعالى لأنه لايعجزه شىء يريده ، فهو القوى العزيز .

٤٧ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) : أى يأخذهم على مخافة وحذرمن العذاب والهلاك . بأن يأخذ طائفة . ويدع أخرى ، فتخاف أن ينزل بها من العذاب مثل مانزل بصاحبتها . أو أن تحدث حالات يخاف فيها عادة كالأعاصير والزلازل والصواعق فيتخوفوا منها فيأخذهم العذاب فى حال تخوفهم ، أو يأخذهم على تنقص فى أنفسهم وفى صحتهم وأموالهم وأولادهم وموارد رزقهم إلى أن يهلكوا جميعًا . فهم فى كل لحظة بسبب ما حل بهم فى خوف من العذاب لأنهم يترقبون وقوعه .

ويلاحظ أن التنقص من معانى التخوف لغة كما سبق بيانه فى المفردات . ولما كان المتقلبون فى البلاد ليلا ونهارًا للتجارة وغيرها . بعيدًا عن المسكن والملجأ . مظنة الفرار من العقاب عند ظهور أول بوادره وكذلك المتخوفون من حلول العقاب بهم ، فلهذا عبر سبحانه

---

(١) سورة القصص الآية ٨١

عن إصابة العذاب لهم بالأخذ الدال على القهر والشدة نظرًا لحالهما ، وسدًا لِمَنافِذِ النجاة على كليهما ، وعبَّر عن إصابة العذاب لهم حال الغفلة بالإتيان لأنه ليس مظنة الفرار وسلوك أى مسلك للنجاة عادة . فلذلك اختلف التعبير فى الإنذار بالعذاب . وليس المراد حصر الإهلاك فى هذه الأحوال الثلاثة . وإنما المراد بيان قدرة الله على إهلاكهم بأى وجه كان .

ثم ختمت الآية بما يفيد اقتضاء رحمة الله الواسعة ،ورأفته الشاملة ألا يعاجلهم بالعقوبة فى الدنيا ليتسنى لهم التفكر فى شأنهم والتدبر فى أمرهم . حيث قال سبحانه :

(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) : حيث أمهلكم مع استحقاقكم للعقوبة لما اقترفتم من بغى وعدوان .

(أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩)

المفردات :

(يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ) : تفيُّؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار . من فاء يفئ . إذا رجع .

(دَاخِرُونَ) : أذلاء منقادون ، من الدُّخُور وهو الصغار والذل ، وفعله . كمنع وخرج .

التفسير

٤٨ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ....) : استفهام إنكارى قصد به تقريع الذين مكروا السيئات ، والمعنى أعمىَ الذين مكروا السيئات ولم ينظروا إلى ما خلق الله من كل جسم قائم له ظل مما تدركه الأبصار ، ليعلموا عظمة الله وكبرياءه ، وأنه سبحانه دانت

له الأشياء والمخلوقات جميعا جمادها ونباتها وحيواناتها . وأناسيها . كما دانت له ظلالها . فكل ذى ظل منها . (يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ) : أى ينتقل ويرجع من جانب إلى آخر . بارتفاع الشمس وانحدارها .أو باختلاف مشارقها ومغاربها . فإن لها مشارق ومغارب حسب مداراتها اليومية التى تتحرك فيها كل يوم من أيام السنة وفق تقدير العزيز العليم .

(عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) : المراد بهما جانبا الشىء ؛ استعارة عن يمين الإنسان وشماله ، والمعنى أن ظلال الأشياء متفيئة عن جانبى كل واحد منها . ترجع من جانب إلى جانب . فتكون أول النهار على حال ، وآخره على حال أخرى وذلك أنها تميل إلى جهة المغرب من وقت الشروق إلى الزوال . وتميل بعده إلى وقت الغروب راجعة إلى جهة الشرق .

(سُجَّدًا لِلَّهِ) : أى حال كون هذه الظلال منقادة لإرادته تعالى فى الامتداد والتقلص . والرجوع من حال إلى حال خاضعة لأحكام تدبيره . غير ممتنعة عليه سبحانه فيما سخرها له ، وذلك هو المراد بسجودها .

(وَهُمْ دَاخِرُونَ) : أى أن أصحاب هذه الظلال التى انقادت ظلالها لما قدر لها من التفيؤ . أذلاء منقادون لحكمه تعالى . يستوى فى ذلك الأجرام الثابتة . كالجبال والأشجار والأحجار ونحوها ، والأجسام المتحركة من كل ما يدب على الأرض إنسانًا وغيره ،وعبر بضمير العقلاء وصفتهم مع شمول الحكم لسواهم ، تغليبًا للعقلاء على غيرهم .

٤٩ - (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ....) : شروع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة بعد بيان سجود الظلال وأصحابها بصفة عامة تأكيدًا لبيان قدرة الله جل شأنه ، وأنه سبحانه يخضع لسلطانه وحده كل شىء . وينقاد له جميع ما فى السموات من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والكواكب والرياح والسحاب ، وما فى الأرض من كل شىء يدب ويتحرك عليها ، وقوله من دابة بيان لما فى الأرض . وقيل بيان لما فى السموات وما فى الأرض جميعًا بناءً على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية فى أرض أو فى سماء ، وربما كان ذلك إشارة إلى وجود أجسام عاقلة على بعض الكواكب ، وقد عزى هذا الرأى إلى ابن عباس وغيره .

(وَالْمَلَائِكَةُ) : أى وملائكة الأرض والسماء يسجدون لله تعالى ، وإنما أفردوا بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة ، وسجود المكلفين المؤمنين لله يعم سجود الطاعة والعبادة ، وسجود الخضوع لمراد الله تعالى ، أما سجود غيرهم فهو سجود الخضوع والانقياد لما يريده الله بهم من الأمور الاختيارية والقهرية ، فهم فى كل ذلك ساجدون أى خاضعون لسلطان الله .

(وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) : أى أن الملائكة مع علو شأنهم لايستكبرون عن عبادته والسجود له . وهم مخلوقات نورانية عاقلة مطيعة لله تعالى .

٥٠ ـ (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ . . . .) : أى يرهبون مالك أمرهم ، ويخافونه خوف هيبة وإجلال . وهو فوقهم بالقهر والحكمة والعلم . كما فى قوله تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »[1] .

أو المعنى : يخافون عذاب ربهم على حذف مضاف لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء .

وجملة : « يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ » بيان وتقرير لنفى الاستكبار لأن من خاف الله لايستكبر عن عبادته .

(وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) : أى يؤدون كل ما يوجهون إليه فى سلوكهم . فشأنهم المثابرة على العبادة وتنفيذ مايكلفون به من التدبيرات فى كون الله تعالى ، وإنما قال سبحانه : « وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » حيث لم يذكر من يُصْدِرُ لهم الأمْر ، لأنه لايخفى على أحد ، فهو الله تعالى .

(١) سورة الأنعام الآية ١٨



٢٥